جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

رسالة ماجستير بعنوان

الحركة التجارية في بلاد الشام في العصر الأيوبي (٥٦٩ ـ ٦٤٨هـ/ ١١٧٣ ـ ١٢٥٠م)

Commercial movement in the Levant in the Ayyubid period (٥٦٩-٦٤٨ AH / ١١٧٣-١٢٥٠ AD)

إعداد

صفوان محمد تيسير حسبان

(١٥٢٠٣٠٣٠٠٢)

إشراف

الدكتور أنور الخالدي

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ

عمادة الدراسات العليا

جامعة آل البيت

٢٠١٩م

التفويــض

أنا الطالب صفوان محمد تيسير حسبان أفوض جامعة آل البيت بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهم حسب التعليمات النافذة في الجامعة.

التوقيع:

التاريخ: / /٢٠١٩م

إقرار والتزام بقوانين جامعة آل البيت وأنظمتها وتعليماتها

أنا الطالـب: صفوان محمد تيسير حسبان الرقم الجامعي: ١٥٢٠٣٠٣٠٠٢

التخصص: التاريخ الكليـــة: الآداب والعلوم الإنسانية

أعلن بأنني قد التزمت بقوانين جامعة آل البيت وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المعمول بها المتعلقة بإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه عندما قمت شخصياً بإعداد رسالتي بعنوان:

الحركة التجارية في بلاد الشام في العصر الأيوبي
(٥٦٩ ـ ٦٤٨هـ/ ١١٧٣ ـ ١٢٥٠م)

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الرسائل والأطاريح العلمية. كما أنني أعلن بأن رسالتي هذه غير منقولة أو مستلة من رسائل أو أطاريح أو كتب أو أبحاث أو أي منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة إعلامية، وتأسيساً على ما تقدم فإنني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك بما فيه حق مجلس العمداء في جامعة آل البيت بإلغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيع الطالب: التاريخ: / /٢٠١٩م

عمادة الدراسات العليا
جامعة آل البيت

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة وعنوانها :

الحركة التجارية في بلاد الشام في العصر الأيوبي

(٥٦٩ – ٦٤٨هـ/ ١١٧٣ – ١٢٥٠م)

إعداد :

صفوان محمد تيسير حسبان

إشراف

الدكتور أنور الخالدي

أعضاء لجنة المناقشة		التوقيع
١. د. أنور الخالـــــدي	مشرفاً ورئيساً	
٢. أ.د. عليان الجالـودي	عضواً	
٣. أ.د. أحمد الجوارنـــة	عضواً/ مناقشاً خارجياً	

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة آل البيت.

نوقشت وأوصى بإجازتها بتاريخ : ١٩/ ٨/٢٠١٩م

الإهـــداء

يا من أحمل اسمك بكل فخر... ويا من أفتقدك منذ زمن... يا من يرتعش قلبي لذكرك... ويا من أودعتني لله... أبي العزيز، أهدي روحك الجميلة هذا البحث.

و إلى حكمتي وعلمي وأدبي وحلمي... و إلى طريقي المستقيم... إلى من يمدني بالأمل والصبر... إلى كل من في الوجود... أمي الغالية.

إلى سندي وقوتي وملاذي... إلى من أظهروا لي ما هو أجمل من الحياة... إخوتي.

الباحث

صفوان محمد تيسير حسبان

شكر وعرفان

في مثل هذه اللحظات يتوقف اليراع ليفكر قبل أن يخط الحروف ليجمعها في كلمات... تتبعثر الأحرف وعبثاً أن يحاول تجميعها في سطور سطوراً كثيرة تمر في الخيال ولا يبقى لنا في نهاية المطاف إلا قليلاً من الذكريات وصور تجمعنا برفاق كانوا إلى جانبنا... فواجب علينا شكرهم ووداعهم ونحن نخطو خطوتنا الأولى في غمار الحياة ونخص بجزيل الشكر والعرفان إلى كل من أشعل شمعة في دروب عملنا وإلى من وقف على المنابر و أعطى من حصيلة فكره لينير دربنا إلى الأساتذة الكرام في قسم التاريخ.

ونتوجه بالشكر الجزيل إلى الدكتور أنور الخالدي الذي تفضل بالإشراف على هذا البحث فجزاه الله عنا كل خير فله منا كل التقدير والاحترام.

الباحث

صفوان محمد تيسير حسبان

فهرس المحتويات

التفويـض ٢

إقرار والتزام بقوانين جامعة آل البيت وأنظمتها وتعليماتها ٣

الإهـــداء ٥

شكر وعرفان ٦

فهرس المحتويات ٧

الملخص ٩

المقدمة ١٠

تحليل مصادر الدراسة: ١٢

الفصل الأول العلاقات التجارية الداخلية في الدولة الأيوبية ١٤

المبحث الأول التجارة والمؤسسات التجارية والصناعية في بلاد الشام ١٦

المطلب الأول الأسواق في بلاد الشام ١٧

المطلب الثاني المؤسسات التجارية في بلاد الشام ٢٤

المبحث الثاني السلع التجارية والصناعية في بلاد الشام في عهد الدولة الأيوبية ٢٦

المطلب الأول الصناعات الغذائية ٢٦

المطلب الثاني الصناعات المعدنية والخشبية ٢٩

المطلب الثالث التجارة الداخلية بين مدن بلاد الشام والمدن الإسلامية الأخرى ٣١

المبحث الثالث التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة آنذاك في بلاد الشام (سواء في عكا على الساحل الفلسطيني، وفي مدينتي أنطاكية وطرابلس) ٣٣

المطلب الأول التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة في عكا على الساحل الفلسطيني ٣٤

المطلب الثاني التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة في مدينتي أنطاكية وطرابلس ٣٨

الفصل الثاني التجارة الخارجية في الدولة الأيوبية ٤٠

المبحث الأول طرق التجارة الدولية البرية والبحرية بين الشرق الأقصى وأوروبا ٤١

المطلب الأول طرق التجارة الدولية البرية بين الشرق الأقصى وأوروبا ٤٢

المطلب الثاني طرق التجارة الدولية البحرية بين الشرق الأقصى وأوروبا ٤٦

المبحث الثاني التجارة مع جزر البحر المتوسط (قبرص، ورودس، وكريت، وصقلية كأنموذج لتلك العلاقات التجارية مع جزر المتوسط) ٤٨

المطلب الأول الصادرات الأيوبية مع جزر البحر المتوسط ٤٨
المطلب الثاني الواردات الأيوبية من جزر البحر المتوسط ٥٠
المبحث الثالث العلاقات التجارية الأيوبية مع الدولة البيزنطية ٥١
المطلب الأول مراحل النشاط التجاري الأيوبي البيزنطي ٥٢
المطلب الثاني السلع المصدرة والمستوردة بين الأيوبيين والبيزنطيين ٥٨
الفصل الثالث السلع التجارية المتبادلة **٥٩**
المبحث الأول صادرات وواردات الدولة الأيوبية من السلع الشامية ٦١
المطلب الأول صادرات الدولة الأيوبية إلى أوروبا ٦١
المطلب الثاني صادرات الدولة الأيوبية إلى الشرق الأقصى ٦٣
المبحث الثاني واردات الدولة الأيوبية من أوروبا ٦٥
المبحث الثالث العملات المتبادلة في التجارة ٦٧
المطلب الأول النقود ٦٧
المطلب الثاني الأوراق المالية ٦٩
الخاتمة **٧٢**
المصادر المراجــع **٧٤**
أولا: المصادر: ٧٤
ثانيا: المراجع: ٧٥
ثالثاً: الأبحاث: ٧٧
رابعاً: الرسائل العلمية: ٧٨
خامساً: المؤتمرات العلمية: ٧٩
Abstract **٨٠**

الحركة التجارية في بلاد الشام في العصر الأيوبي
(٥٦٩ ـ ٦٤٨هـ/ ١١٧٣ ـ ١٢٥٠م)

إعداد الطالب:

صفوان محمد تيسير حسبان

إشراف:

د. أنور الخالدي

الملخص

شهد العصر الأيوبي جملة كبيرة من الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية على حد سواء، وكانت تلك الأحداث متداخلة ومتشابكة إلى حد يصعب على الباحث فصلها عن بعضها البعض فقد اشتد الخلاف بين مركز الخلافة العباسية في بغداد وبين خلافة الفاطميين في مصر وفي ظل هذه الخلافات جاءت الحروب الفرنجية فسيطرت على بلاد الشام. ورغم ذلك فإن تلك الأحداث لم تقف حائلا أمام التقدم والازدهار الذي شهده العصر الأيوبي في مجالات الحياة المختلفة. واستطاع الأيوبيون أثناء فترة حكمهم من التصدي للغزو الفرنجي وإدارة شؤون مصر والشام.

والدراسة جاءت لتلقي الضوء على الحركة التجارية في بلاد الشام في العصر الأيوبي في الفترة من (٥٦٩-٦٤٨هـ/ ١١٧٣-١٢٥٠م) . ولتحقيق هذا الغرض تم تقسيم الدراسة إلى ثلاثة فصول تناول الفصل الأول العلاقات التجارية الداخلية في الدولة الأيوبية حيث تم إلقاء الضوء على التجارة والمؤسسات التجارية والصناعية في بلاد الشام والسلع التجارية، إضافة إلى التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة آنذاك في بلاد الشام. أما الفصل الثاني فتناول التجارة الخارجية في الدولة الأيوبية حيث عرض هذا الفصل لطرق التجارة الدولية البرية والبحرية بين الشرق الأقصى وأوروبا، والتجارة مع جزر البحر المتوسط، وكذلك التجارة مع بيزنطة. وتناول الفصل الثالث السلع التجارية المتبادلة سواء فيما يتعلق بصادرات الدولة الأيوبية أو بوارداتها من الخارج وكذلك العملات المتبادلة في التجارة.

وخلصت الدراسة إلى أن النشاط التجاري بين الأيوبيين والفرنجة كان يرجع بالأساس إلى حاجة كلا الطرفين إلى عوائد التجارة، وأنه في سبيل ضمان استمرار النشاط التجاري فقد حرص الأيوبيون على حماية الطرق التجارية البرية منها أو البحرية، حيث أن الأمن هو عنصر رئيسي لاستمرار النشاط التجاري، وأخيرا فقد حرص الأيوبيون على تطوير النظم المالية فعلى الرغم من أن النقود كانت هي أساس التعامل التجاري، إلا أنه إلى جانب النقد ظهرت عدة أساليب مثل الحوالات والصكوك والسفاتج والرقاع.

المقدمة

جاء عصر الدولة الأيوبية في وقت اجتاحت فيه المنطقة العربية الإسلامية أحداث مهمة، حيث تنازعت الحكم في شرقه وغربه خلافتان مختلفتان من حيث الاتجاه السياسي، الأولى الخلافة العباسية السنية ومركزها بغداد، والثانية الخلافة الفاطمية الشيعية في مصر ومركزها القاهرة، وفي خضم صراع الخلافتين العقائدي والاقتصادي على المنطقة، برز الفرنجة في المنطقة بهدف السيطرة على المنطقة واستغلال مواردها ومقدراتها الاقتصادية.

وقد أدرك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أن المنطقة العربية الإسلامية لن يستقيم لها أمر إلا بالوحدة والجهاد لتحرير الأرض من المغتصب الفرنجة، وخروجهم من الأرض العربية، فكانت هذه الحروب بين المسلمين والأوروبيين والتي أطلق عليها الحروب الفرنجية، وقد كانت الأمم الأوروبية والقوى البحرية التجارية في معظم الأحيان طرفاً في النزاع، ودعمهم للفرنجيين بما يخدم مصالحهم، ويحقق لهم أعلى المكاسب الاقتصادية، وحرصت في الوقت نفسه على استمرار علاقاتها التجارية مع مصر وبلاد الشام بعد تحول ميزان القوى لصالح المسلمين بعد تولي صلاح الدين الأيوبي الحكم، وتوحيده لمصر وبلاد الشام، وجعله مصر مركزاً لقوة الإسلام[١].

وقد تمتعت بلاد الشام على امتداد العصور بمركز تجاري في العلاقات بين الشرق والغرب، حيث شكلت التجارة الخطوط العريضة للقوتين السياسية والعسكرية للدولة الأيوبية، وهو ما ستقوم به هذه الدراسة بمعالجته، من خلال البحث في النشاط التجاري في عهد الدولة الأيوبية، ودور التجارة الأيوبية في بلاد الشام وعلاقاتها الخارجية ومعاهداتها الدولية من أجل توفير مورد مالي مهم لدعم الأهداف السياسية والعسكرية للدولة الأيوبية، فجاءت العلاقات الاقتصادية مع المدن التجارية الإيطالية، ومع بيزنطة، وذلك من أجل بث روح التنافس التجاري بين الجمهوريات الإيطالية بما يعود على الدولة الأيوبية من نفع، وبالتالي، ازدهرت التجارة في بلاد الشام في عهد صلاح الدين الأيوبي، ما أدى إلى ازدياد الموارد المالية، وبالتالي إضعاف النشاط التجاري للفرنجيين، خاصة عن طريق السيطرة على الطرق البحرية بين البحرين الأحمر والأبيض، وكذلك مواجهة نشاط المدن التجارية الأوروبية في تهريب الذهب من مصر التي تهدف إلى إفقار الدولة الأيوبية[٢].

وسعت هذه الدراسة التعرف على النشاط التجاري في العصر الأيوبي في بلاد الشام، وتبيان العوامل المؤثرة فيه، وأثره في خزينة الدولة الأيوبية، سواءً من ناحية العوائد التجارية على الدولة من ذلك النشاط، أو من الضرائب التي كانت تجبيها الدولة من التجار عن طريق استخدام المنهج الوصفي التحليلي، وستقسم هذه الدراسة إلى مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة وقائمة مصادر ومراجع.

---

[١] حجازي، فايزة عبد الرحمن، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة اليرموك، ١٩٩٢م.

[٢] عطا، زبيدة، الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الدولة الأيوبية، ط٢، القاهرة: دار الأمين، ١٩٩٤م.

سلطنة سلاجقة الروم
إمارة قليقية الأرمنية
كونتية الرها
إمارة أنطاكية
الإمبراطورية البيزنطية
دولة السلاجقة العظام
البحر المتوسط
مملكة بيت المقدس
الدولة الفاطمية
الشرق الأدنى
1135م
ما بين الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية

تحليل مصادر الدراسة:

١. عبد الرحمن بن عبد الله الشيرزي (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) "نهاية الرتبة في طلب الحسبة"، والذي تناول التجارة والحسبة والأموال، وهو مؤرخ معاصر، وأهمية هذا المصدر تنبع من خلال عرضه لطبيعة التنظيمات الحرفية وعلاقة السلطة الأيوبية بأصحاب الحرف، وذكر نشاطات السوق والحوانيت.

٢. ابن مماتي (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م) "قوانين الدواوين"، وهو مؤرخ معاصر، تحدث عن الصناعات والحرف في عهد الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام.

٣. المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) الخطط، وإغاثة الأمة بكشف الغُمة، والنقود الإسلامية.

يمثل عصر سلاطين العهد الأيوبي مكان الصدارة من اهتمام المؤرخين بتاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسطى، نظراً لكونه حلقة من حلقات الصراع في تلك العصور، وقد نالت الجوانب السياسية التاريخية وما جرى بها من أحداث القسط الأوفر من الدراسات، إلا أن الجوانب الاقتصادية والتجارية ما تزال تفتقر إلى مزيد من البحث والدراسة، لا سيما وأن عصر الدولة الأيوبية في بلاد الشام قد جاء محاطاً بمخاطر سياسية واقتصادية وعسكرية كبيرة، حيث صبغت الدولة الأيوبية بصراعها مع الفرنجة حتى سقوطها، إضافة لاصطدامها على فترات متقطعة بالقوى الإسلامية المحيطة بها، وإضافة إلى ذلك واجه الأيوبيون جملة من التحديات تمثلت في الصراعات الداخلية بين الأمراء الأيوبيين، وبسبب التهديدات الخارجية المحيطة اضطرت الدولة لإنشاء جيش قوي أوكلت له حماية حدود الدولة كافة، ولكن وبسبب اتساع رقعة الدولة واضطرارها لنشر الجيوش وتوزيعها في الأجناد تكلفت الدولة نفقات هائلة دفعتها إلى توجيه اهتمامها بالنشاط التجاري، الذي وفر لخزينة الدولة رافداً أساسياً أسهم في رفد المؤسسة العسكرية وحافظ على قوتها، ولبيان أثر هذا النشاط التجاري في جوانب الدولة الأيوبية المختلفة في بلاد الشام[١].

وبالتالي، ستستمد هذه الدراسة أهميتها من محاولتها التعرف على النشاط التجاري في العصر الأيوبي في بلاد الشام، وتبيان العوامل المؤثرة فيه، وأثره في خزينة الدولة الأيوبية، سواءً من ناحية العوائد التجارية على الدولة من ذلك النشاط، أو من الضرائب التي كانت تجبيها الدولة من التجار.

وستحاول الدراسة أن تجيب عن عدد من الأسئلة منها:

١- ما أهمية النشاط التجاري في عهد الدولة الأيوبية في بلاد الشام؟
٢- كيف كانت العلاقات التجارية الداخلية في الدولة الأيوبية؟
٣- ما طبيعة التجارة الخارجية في الدولة الأيوبية؟
٤- ما هي السلع التجارية المتبادلة في عهد الدولة الأيوبية في بلاد الشام؟

---

[١] غوانمة، يوسف درويش، إمارة الكرك الأيوبية ١٠٩٩-١١٨٧م، ط٢، عمان: دار الفكر، ١٩٨٢م.

واستطاع الباحث الإفادة من عدد من الدراسات السابقة ذات الصلة بشكل مباشر أو غير مباشر بموضع هذه الدراسة، ومن أبرزها ما يلي:

- دراسة بعنوان: "الحياة الاقتصادية في العصر الأيوبي"[١].

وهي دراسة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآداب - التاريخ، من إعداد أمين أبو دمعة، ١٩٨٨م، جامعة دمشق. وقد اشتملت هذه الدراسة على مقدمة، وفصل تمهيدي تحدث فيه الباحث عن بلاد الشام قبل وصول الأيوبيين، والتعريف بالأيوبيين ووصولهم إلى الحكم، ثم قسمت الدراسة إلى لفصول ثلاثة، تناول الفصل الأول الزراعة في العصر الأيوبي في بلاد الشام، وفي الثاني الصناعة والتقدم الصناعي وخامات بلاد الشام الصناعية، أما الثالث فتناول موضوع التجارة وأنواعها وطرق المواصلات، والعلاقات مع بين الأيوبيين والفرنجة وبلاد الشرق الأدنى وبيزنطة، ثم الأسواق، والمنشآت التجارية، بالإضافة إلى الصادرات والعملات والأوزان والمكاييل.

- دراسة بعنوان: "دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين (٤٦٨-٥٦٨هـ/ ١٠٧٥-١١٧٣م) دراسة اقتصادية اجتماعية"[٢].

وهي دراسة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب قسم التاريخ، من إعداد عبد المعين طاهر الشواف، بإشراف الدكتور محمود زعرور، عام ٢٠٠٨م، جامعة دمشق. وقد غطى الباحث تاريخ دمشق منذ سقوط الفاطميين سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م، وحتى وفاة نور الدين سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٣م. وقد اشتملت الدراسة على ستة فصول، وما يهم الدراسة الحالية منها الفصل الثالث الذي تناول الصناعة والتجارة والأوزان والعملات، وأسواق دمشق وما كانت تحويه من بضائع محلية ومستوردة. وتعد هذه الدراسة مرجعاً يفيد الدراسة الحالية من حيث الاطلاع على أوضاع التجارة في دمشق في عصر الحكم الأيوبي لدمشق.

- دراسة بعنوان: "التجارة في الدولة الأيوبية (٥٦٩- ٦٤٨هـ/ ١١٧٣- ١٢٥٠م)"[٣].

وهي دراسة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب – قسم التاريخ، من إعداد ربا صالح الوزني، بإشراف الدكتور يوسف غوانمة، وقد اشتملت الدراسة على أربعة فصول وعدداً من المباحث، وما يهم الدراسة الحالية منها الفصل الثالث الذي تناول التجارة الخارجية للدولة الأيوبية في بلاد الشام، والفصل الرابع الذي تناول السلع التجارية الشامية المتبادلة بين الدولة الأيوبية في بلاد الشام والمدن الأوروبية.

---

[١] أبو دمعة، أمين، الحياة الاقتصادية في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة دمشق، ١٩٨٨م.

[٢] الشواف، عبد المعين، دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين ٤٦٨–٥٦٨هـ/ ١٠٧٥– ١١٧٣م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة دمشق، ٢٠٠٨م.

[٣] الوزني، ربا صالح، التجارة في الدولة الأيوبية ٥٦٩– ٦٤٨هـ/ ١١٧٣– ١٢٥٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، ٢٠١٤م.

الفصل الأول
العلاقات التجارية الداخلية في الدولة الأيوبية

- المبحث الأول: التجارة والمؤسسات التجارية والصناعية في بلاد الشام.
- المبحث الثاني: السلع التجارية والصناعية في بلاد الشام في عهد الدولة الأيوبية.
- المبحث الثالث: التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة آنذاك في بلاد الشام (سواء في عكا على الساحل الفلسطيني، وفي مدينتي أنطاكية وطرابلس).

الفصل الأول

العلاقات التجارية الداخلية في الدولة الأيوبية

المقدمة.

ينحدر نسب الأيوبيون إلى أيوب بن شادي بن مروان[١]، وهم من الأكراد الروادية، وكان شادي بن مروان قد خدم في دولة السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملك شاه[٢] وكان قد أقطعه قلعة تكريت وهي قلعة حصينة تقع في بلدة تكريت بين بغداد والموصل غرب نهر دجلة[٣]. وما زال بها والياً، حتى انتقلت الولاية إلى ابنه نجم الدين[٤]، ومن تكريت التحق بعماد الدين زنكي، صاحب الموصل، فعينه الأخير نائبة على بعلبك سنة ٥٣٢ هـ /١١٣٧م[٥].

وقد بذل الأيوبيون جهودا عظيمة في توحيد بلاد الشام مصر تحت سيادة نور الدين محمد بن زنكي، حيث برزت جهود صلاح الدين يوسف فولّاه نور الدين محمود بن زنكي في دمشق، ثم سيره مع عمه أسد الدين شيركوه على رأس العساكر التي توجهت إلى مصر من اجل الاستيلاء عليها، ولم تتحقق تلك السيطرة إلا في الحملة الشامية التي انطلقت سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م، وذلك بعد أن استنجد أهل مصر على الوزير الفاطمي شاور، الذي تحالف مع الفرنجة الذين قدموا إلى الديار المصرية، ولما انتقلت الوزارة إلى صلاح الدين بعد وفاة أسد الدين شيركوه سعى إلى السيطرة على مقاليد الحكم في مصر، وعمل على تقويض دعائم الحكم الفاطمي فيها، وقام بإلغاء الخطبة من منابرها للخلافة الفاطمية، وأعاد إليها الخطبة العباسية في سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م[٦].

ولأن التجارة من أهم الميادين الاقتصادية الحيوية لأي دولة، فقد حرص الأيوبيون على توطيد الاستقرار من حيث المبدأ في البلاد التي خضعت لحكمهم ومن ثم انطلق الأيوبيون إلى الاستفادة من الطاقات الاقتصادية المتوفرة في البلدان الإسلامية وتنشيطها عبر حملة من التنظيمات

---

(١) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٥٣. وسيشار له لاحقاً: الحنبلي، شفاء القلوب.

(٢) ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٩م، مج ٥، ص ٢٠٠. وسيشار له لاحقاً: ابن خلكان، وفيات الأعيان.

(٣) الحموي ياقوت، معجم البلدان، دار التراث العربي، بيروت، ج٢، ١٩٧٩م، ص٣٨.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان، مج ١، ص ٢٥٥، ٢٥٨.

(٥) المصدر السابق، مج٢، ص٣٢٧.

(١) ابن المقفع، ساويرس، تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة؛ تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٦م، ج٣، ص٦٦١،

والإجراءات الإدارية التي كان لها أثر بالغ على مختلف الأنشطة الاقتصادية، وهذا الفصل مخصص للبحث في العلاقات التجارية الداخلية في الأيوبية من خلال المباحث الآتية:

- المبحث الأول: التجارة والمؤسسات التجارية والصناعية في بلاد الشام.
- المبحث الثاني: السلع التجارية والصناعية في بلاد الشام في عهد الدولة الأيوبية.
- المبحث الثالث: التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة آنذاك في بلاد الشام سواء في عكا على الساحل الفلسطيني، وفي مدينتي أنطاكية وطرابلس.

المبحث الأول التجارة والمؤسسات التجارية والصناعية في بلاد الشام

ازدهرت التجارة في العصر الأيوبي بشكل كبير وقد ساعد على ذلك الموقع الجغرافي للمدن التي كانت واقعة تحت حكم الأيوبيون، وكانت بلاد الشام في العصر الأيوبي تمثل مركزا تجاريا هاما للأيوبيين، كما ساعد اتساع الإنتاج وانتشار الأمن في العصر الأيوبي على ازدهار الحركة التجارية الداخلية والخارجية، وسهولة الانتقال من مكان لآخر كما ساعد على ازدهار التجارة وتطورها توافر الصناعات المتقدمة، ووحدة النقد.

والمتتبع لتلك الفترة يلحظ أن هناك علاقة وطيدة بين ازدهار التجارة ونمو المدن التجارية في بلاد الشام، وخاصة تلك التي تقع على خط سير القوافل فقد ذكر ابن حوقل (ت٣٧٦هـ) إن مدينة حلب كانت مدينة عامرة غاصة بأهلها كثيرة الخيرات وسائر الشاميات[١].

وسوف يتناول هذا المبحث المطالب الآتية:

المطلب الأول: الأسواق في بلاد الشام.

المطلب الثاني: المؤسسات الصناعية في بلاد الشام.

---

[١] ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي (ت٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الأرض، ليدن، مصدر الأوفست، بيروت–لبنان بيروت، ١٩٣٨م، ص١٦٣.

المطلب الأول الأسواق في بلاد الشام

شكلت دمشق المركز التجاري البارز في العصر الأيوبي، حيث كانت الأسواق تتمركز فيها، وكانت تلك الأسواق تمتد على طول الشوارع من الجانبين، وكانت الأسواق في معظم مدن الشام لا تخلو من جامع أو من حمام وسبيل ماء ولها أوقاف خاصة لإصلاحها[١].

وقد لعبت الأسواق دوراً كبيرا في الحياة التجارية ، حيث مثلت الأسواق عنصرا مركزيا للمدن التجارية على مر التاريخ، باعتبارها مجموعة من المحال التجارية أو الدكاكين والمنشآت التي تتمركز فيها الحياة الصناعية والتجارية وفي تلك الأسواق يلتقي أطراف التجارة من تجار وحرفين وسماسرة ويمارسون النشاط التجاري كل حسب مهنته[٢].

ونتيجة لوجود عد كبير من الأسواق في بلاد الشام فقد عمل سكانها بالتجارة وحققوا من ورائها كسبا كبيرا وشاع الثراء بينهم بفعل العمل في التجارة[٣]. وقد ذاعت شهرة مدن الشام التجارية مثل دمشق وحلب وطرابلس واللاذقية وصور وعكا كمحطات تجارية وانتشرت الأسواق فيها وصارت محط العاملين بالتجارة.

وكانت عناية الأيوبيين بالأسواق على درجة عالية ممن الدقة والإتقان بحيث يكون السوق مناسبا لطبيعة النشاط التجاري فينبغي "أن تكون الأسواق في الارتفاع، والاتساع على ما وضعته الروم قديما، ويكون من جانبي السوق إفريزان[٤].يمشي عليهما الناس في زمن الشتاء، إذا لم يكن السوق مبلطا، ولا يجوز لأحد من السوقة إخراج مصطبة دكانه عن سمت أركان السقائف إلى الممر الأصلي؛ لأنه عدوان على المارة، يجب على المحتسب إزالته، والمنع من فعله، لما في ذلك من لحوق الضرر بالناس. ويجعل لأهل كل صنعة منهم سوقا يختص بهم، وتعرف صناعتهم فيه، فإن ذلك لقصادهم أرفق، ولصنائعهم أنفق، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار، كالخباز و الطباخ، والحداد، فالمستحب أن يبعد حوانيتهم عن العطارين والبزازين، لعدم المجانسة بينهم، وحصول الأضرار[٥].

---

(١) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، د.ت، ج٢، ص٢٦٦.

(٢) مرريس ديموجين، النظم الإسلامية بحث في مؤسسات الدولة: الدين – المجتمع. ترجمة صالح الشماع وفيصل العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٥٢م، ص٢٤٩.

(٣) سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م، ص٥٦.

(٤) الأفريز: هو ما أشرف خارجا عن البناء: انظر الصفار، أسامة، المعرب والدخيل والألفاظ العالمية دراسة نقدية تأثيلية في تاج العروس دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧١م، ص٣٠٢.

(٥) الشيرزي، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ص١٢.

أما عن تنظيم الأسواق من حيث المكان فإن المعتبر في ذلك حاجة المسجد والمصلين لما يباع في تلك الأسواق، فقد ذكر ابن عساكر الترتيب البديع لتلك الأسواق حيث كان سوق الشماعين أقرب تلك الأسواق لحاجه الجامع إلى الإضاءة بالشموع أثناء الليل، ثم سوق العطارين والمطيين باعة العطور والبخور"، ثم سوق القباقبية لاستخدام القباقيب في الوضوء ثم سوق العدل والمأذونين "لأن عقود الزواج لا تتم إلا بالجامع. ثم سوق الكتب حيث كانت الجوامع والمساجد مواطن العلم والتعليم وفيها تقام حلقات التدريس لكافة المعلوم الدينية والعربية ثم تتابع الأسواق بعدا. فقد كان سوق الحدادين أكثر الأسواق بعدا عن الجامع وكذلك الدباغين والصباغين والسراجين حرصاً على راحة الناس والمصلين[١].

وقد تميزت الأسواق الشامية بوجود الاختصاص في الأسواق حيث كان ترتيب تلك الأسواق يتم بحيث "يُجعل لأهل كل صنعة منهم سوقاً تختص بهم وتُعرض صناعتهم فيها، فإن ذلك لتضادهم أوفق ولصناعتهم أنفق"[٢].

وشهدت بلاد الشام نوعين من الأسواق هما الأسواق الدائمة، والأسواق غير دائمة. وقد غلب على أسواق دمشق أنها دائمة، وكانت التجارة تتمركز فيها على شكل حوانيت مقامة على جوانب الشوارع، وكانت هذه الأسواق تتغير تبعا للظروف التي تمر بها المدنية[٣].

أما عن أبرز الأسواق الشامية فكانت على النحو الآتي:

- أسواق دمشق:

لعب الموقع الجغرافي لمدينة دمشق دورا كبيرا في ازدهار أسواقها، وكانت المدن القريبة من دمشق تحصل على ما تحتاج إليه من السلع من أسواق دمشق[٤]، وقد وصف ابن جبير (٦١٤هـ/١٢١٧م) أسواق دمشق بقوله "أسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وصفاً، لا سيما قيسارياتها- أشكال المنشآت التجارية-، فهي مرتفعة كالفنادق، ولها سوق يُعرف بالسوق الكبير، يصل من باب الجابية إلى باب شرقي، وفيه بيت صغير جداً قد اتخذ مصلى، وفي قبلته حجر يقال إن إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان يكسر عليه الآلهة التي كان يسوقها أبوه للبيع"[٥].

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢، ص٥٧.

(٢) الشيرزي، نهاية الرتبة ، ص١١.

(٣) سوفاجية، جان: دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة في العصر الحديث، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٦م، ص٤٣.

(٤) حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ٢٠١٠م، ج ٢، ص ٣١٣ .

(٥) ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.د.ت، ص٢٢٠.

واشتملت هذه الأسواق على كل حاجات المجتمع من مأكولات وملبوسات، وغيرها من المنتجات. كما أن طابع التخصص غلب عليها، وكان على المشترى أن يجوب الأسواق كلها لتأمين حاجاته[١]، فلا يميل لأن الأسواق كانت مدعاة لإدخال البهجة والمتعة إلى النفوس فعرض البضائع يغرى بالشراء بالإضافة إلى أن كثرة الناس، من كافة الأقطار تذهب السأم والملل، يتبادلون متاجرهم و سلعهم، ويحمل هؤلاء منهم المصنوعات الدمشقية المتنوعة[٢].

وسيطرت ظاهرة التخصص على معظم أسواق دمشق، حيث وجد لكل سلعة سوق حسب المادة التي تباع أو تنتج بها، ومن هذه الأسواق مثلاً: أسواق المواد الغذائية، وهي: سوق القمح، وسوق البزورية، وسوق الحبوبية، وسوق اللحامين، وسوق الطباخين، وسوق دار البطيخ، كما شملت أسواق الملابس أقساما متخصصة، ومنها: سوق الحرير، وسوق الذراع، وسوق الأبارين، وسوق القلانسيين، وسوق الخياطين. أما أسواق الأحذية، فشملت: سوق الحذائين، وسوق القباقبية. كما كان هناك أسواق للحيوانات، وأهمها: سوق الخيل، وسوق الغنم، وأسواق الطيور، ومنها: سوق الدجاجين، وسوق الطير، وكان هناك أسواق للحرف والصناعات، ومن أهمها: سوق الحدادين، وسوق النحاسين، وسوق النجارين، وسوق الخشابين، وسوق الزجاجين، وسوق القناديل، وسوق الحياكين[٣].

ولفتت ظاهرة الأسواق الدمشقية أنظار المؤرخين وحظيت باهتمامهم فقد تحدث عنها المقدسي (٣٨٠هـ/٩٩٠م) بقوله "دمشق مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية وثم قصورهم وآثارهم، بنيانهم خشب وطين وعليها حصن أحدث وأنا بها من طين، وأكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن، وهو بلد قد خرقته الأنهار، وأحدقت به الأشجار. وكثرت به الثمار، مع رخص أسعار. وثلج وأضداد لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فواراتها ولا أحزم من أهلها[٤].

وقد ضمت أسواق دمشق العديد من المطاعم وكانت تتميز بالنظافة والدقة في الطهي، فقد كان بإمكان الشخص أن يحصل على ما يريده من السوق من طعام مطبوخ[٥].

---

(١) عاشور، سعيد ، أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره، ص٣٣٢.

(٢) نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، بيروت، ١٩٦٦م، ص ١٠٨.

(٣) الضمور، حاتم نايل، الأسواق في بلاد الشام في صدر الإسلام، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد٣، العدد١، ٢٠٠٩م، ص١٩.

(٤) المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص١٥٦.

(٥) نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، ص١٤٢.

- أسواق حلب:

وصفه الحلبي (١٣٧٠هـ/١٩٥١م) أسواق حلب بقوله "وأما البلد فموضعه ضخم جدا حفيل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب فكأنها في ظلال وارفة ، فكل سوق منها تقيد الأبصار حسنا وتستوقف المستوفز تعجبا. وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا، مطيفة بالجامع المكرم لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائي الرياضية، وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش، وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر، وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم[١]". وقال عنها ابن جبير (٦١٤هـ/١٢١٧م) "وأما البلد فموضوعه ضخم جداً، حفيل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها، متصلة الانتظام مستطيلة، تخرج من سماط صنعة سماط صنعة أخرى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف بالخشب، فسكانها في ظلال وارفة. فكل سوق منها تقيد الأبصار حسناً وتستوقف المستوفز تعجباً"[٢].

أما ابن حوقل (٣٦٧هـ/٩٧٧م) فذكر أن حلب: "كان لها أسواق حسنة وحمامات و فنادق ومحال وعراص فسيحة"[٣].

وتحدث ابن بطوطة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) عن أسواق حلب بقوله "وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها في حسن الوضع، وإتقان الترتيب، واتساع الأسواق، وانتظام بعضها ببعض. وأسواقها مسقفة بالخشب، فأهلها دائماً في ظل ممدود وقيساريتها لا تماثل حسناً وكبراً، وهي تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذٍ لباب من أبواب المسجد"[٤].

وقد كان لحلب دورا بارزا في النشاط التجاري الداخلي والخارجي في ظل الحكم الأيوبي بسبب موقعها الاستراتيجي وتقدم صناعاتها وتنوعها، بالإضافة إلى تشجيع الأيوبيين من حكامها على عقد المعاهدات التجارية مع المدن الايطالية تقديم كافة التسهيلات للتجار الغرباء[٥].

---

[١] الحلبي، حمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق محمد كمال، دار القلم، بيروت، ١٩٨٨م، ج٢، ص١٣٢.

[٢] ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير، رحلة ابن جبير، ص٩٤.

[٣] ابن الشحنه: تاريخ مملكة حلب ص٢٥٤.

[٤] ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، ١٩٨٥م، ص٥٣

[٥] هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ج٢، ص١٨٢-١٨٣.

- أسواق حماه:

وهي من المدن التجارية الكبرى نظرا لموقعها المتميز والذي يتوسط دمشق وحلب تمر بها طريق القوافل. وعلى مقربة منها المدن الهامة، كحمص والمعرة والسلمية ومصياف وشيزر التي كان تجارها يفدون على حماه لابتياع حاجاتهم منها وكان لها دور هام في مبادلاتها التجارية مع هذه المدن وكانت السلع المتداولة من إنتاج الريف والبادية أو من إنتاج أسواق الصناعات ودورها وكانت تمتلك نوعين من الأسواق الدائمة والموسمية[١]. وقد أشار إليها ياقوت الحموي (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) بقوله "حماة: مدينة كبيرة عظيمة كثيرة الخيرات رخيصة الأسعار واسعة الرّقعة حفلة الأسواق، يحيط بها سور محكم، وبظاهر السور حاضر كبير جدّا، فيه أسواق كثيرة وجامع مفرد مشرف على نهرها المعروف بالعاصي، عليه عدة نواعير تستقي الماء من العاصي فتسقي بساتينها وتصبّ إلى بركة جامعها"[٢] ووصفها ابن حوقل بأنها "وحماة مدينة صغيرة كثيرة المياه والشجر والزرع والفواكه والخضر"[٣].

أما ابن جبير فأشار إلى أن حماة كانت تحتوي على نوعين من الأسواق فقال "مدينة شهيرة في البلدان، قديمة الصحبة للزمان... وللمدينة السفلى سور يحدق بها من ثلاثة جوانب، لأن جانبها المتصل بالنهر لا يحتاج سور. وعلى النهر جسر كبير معقود بصم الحجارة يتصل من المدينة السفلى ربضها. وربضها كبير فيه الخانات والديار، وله حوانيت يستعجل فيها المسافر حاجاته أن يفرغ لدخول المدينة، وأسواق المدينة العليا أحفل وأجمل من أسواق المدينة السفلى، وهي الجامعة لجميع الصناعات والتجارات، وموضوعها حسن التنظيم، بديع الترتيب والتقسيم، ولها جامع أكبر من الجامع الأسفل، ولها ثلاث مدارس ومارستان[٤] على شط النهر بإزاء الجامع الصغير[٥].

- أسواق حمص:

وهي مدينة قديمة واحدى قواعد الشام ذات بساتين. مشربها من نهر العاص[٦]. وقال ابن حوقل: "وهي في سند من الأرض خصبة جدا"[٧] وقال عنها القزويني (٦٢٨هـ/١٢٨٣م) "وحمص أصح بلاد الشام هواء وتربة. وهي كثيرة المياه والأشجار"[٨].

---

(١) برغوث، عبد الودود، تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والإداري، مجلة الحوليات الأثرية المجلد١٦، الجزء الأول لسنة ١٩٦٦م، ص٥٧-٨٤.

(٢) ياقوت الحموي، شهاب الدين، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م، ج٢، ص٣٠٠.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٧٧.

(٤) المارستان أو البيمارستان: مصطلح فارسي من شقين (بيمار-ستان) وتعني (محل المريض) أي بمعنى مستشفى حيث كانت دوراً للعلاج وأيضاً معاهد لتدريس الطب.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص١٨١.

(٦) ابن الفداء: تقويم البلدان،ص٢٦٠.

(٧) ابن حوقل: صورة الأرض ، ص١٦٢.

(٨) القزويني، زكريا بن محمد، أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ١٩٦٩م، ص١٤٨.

وتكمن أهميتها في أنها طريق الاتصال بالمدن الساحلية وبخاصة طرابلس، وموقعها المتوسط على الطريق التجاري أعطاها أهمية تجارية خاصة بالإضافة إلى شهرة وجودة مصنوعاتها النسيجية التي تقارب الأقمشة المصنعة فيه[١]. ووصف ابن حوقل أسواقها بالقول "وجميع طرق حمص من أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة مبلّطة"[٢].

والذي يظهر أن أسواق مدينة حمص لم تكن بمستوى أسواق دمشق وحلب فقد وصفها ابن جبير بقوله "وأما داخلها فما شئت من باديةٍ شعثاء، خلقة الأرجاء، ملفقة البناء، لا إشراق لآفاقها، ولا رونق لأسواقها، كاسدة لا عهد لها بنفاقها. وما ظنك ببلد حصن الأكراد منه على أميال يسيرة، وهو معقل العدو، فهو منه تتراءى ناره، ويحرق إذا يطير شراره، ويتعهد إذا شاء كل يوم مغارة"[٣].

- بيروت:

تميزت بيروت بخصوبة تربتها ووفرت أمطارها ومناخها الملائم والمتنوع مما أسهم في تنوع إنتاجها الزراعي من جهة [٤]. إضافة إلى أن مدينة بيروت اشتهرت بسبب مناجم الحديد التي تقع على مقربة منها، ومن غابات الصنوبر التي استخدمت في صناعة السفن بالإضافة إلى الموقع الهام فهي فرضة دمشق[٥]، وكانت ضواحي بيروت تنتج الزيت والصابون[٦]، الذي يدخل في صادراتها الى المدن الشامية المجاورة. ووصفها ابن بطوطة بقوله "بيروت وهي صغيرة، حسنة الأسواق، وجامعها بديع الحسن ويجلب منها إلى ديار مصر الفواكه. وقال التازي: كان لبيروت كما يقول ابن شداد في (الأعلاق) غيضة أشجار صنوبر تتصل بجنوبها إلى جبل لبنان، ولها بمقربة منه جبل فيه معدن حديد، وشُربُ أهلها من الآبار، وكانت بيروت مرسى لدمشق... آلت إلى الفرنجة حتى ملكها الناصر صلاح الدين وأقطعها عز الدين أسامة"[٧]. ووصفها ابن شداد (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) بالقول "وهي على ضفة البحر. عليها سور من حجارة ولها بمقربة منها جبل فيه معدن الحديد. ولها غيضة أشجار صنوبر تتصل بجنوبها إلى جبال لبنان، تكسيرها اثنا عشر ميلا في مثلها. وشرب أهل بيروت من الآبار"[٨].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤، ص١٨٣.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص١٧٧.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٨٢.

(٤) يحي، صالح، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، تحقيق لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٢٧م، ص١٨٠.

(٥) ابن سعيد، أبو الحسن على بن موسى، الجغرافيا، د.ت، د.ن، ص١٥٠.

(٦) يحي، صالح، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، ص٢٧٨.

(٧) ابن بطوطة، الرحلة، ص٤٨.

(٨) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، وزارة الثقافة السورية، ١٩٩١م، ص٧٩

- طرابلس:

وهي مدينة عظيمة عليها سور صخري منيع، ولها رساتيق وضياع جليلة وأرضها غورية، كثيرة الأشجار، وبها الزيتون والكرمة وقصب السكر وأنواع الفواكه وضروب الغلات[١]، (وهي مركز تجاري هام بسبب موقعها الممتاز على ساحل المتوسط، فالحركة التجارية فيها مستمرة لتوفير المواد والمصنوعات، فتغطي حاجة السوق المحلية وتصدر إلى المدن المجاورة لها حيث تمدها بالسكر والورق والأصباغ والديباج[٢]) ووصفها ابن شداد بالقول "وهي مدينة عظيمة لها سور من حجر منيع. ولها رساتيق وضياع جليلة. وأرضها غورية كثيرة قصب السكر. والبحر يأخذها من ثلاث جهات لها. وينضاف إليها عدة حصون"[٣].

- صيدا:

وصفها ابن شداد بالقول "وهي على ساحل البحر. وعليها سور من حجارة تنسب لرجل من ولد كنعان بن حام. وكورتها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار، لها أربعة أقاليم، متصلة بجبل لبنان، تشتمل على نيّف وستمائة ضيعة، لم تزل في أيدي الفرنجة حتى حررها الملك الناصر صلاح الدين بالأمان بعد قتال شديد وحصار عتيد سنه ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وترتبط هذه المدينة ارتباطا قويا بموانئ الشام من جهة وموانئ مصر من جهة ثانية، وأشار ابن المدبّر (ت٢٧٨هـ٨٩٣م) إلى كثرة السفن المصرية التي تؤم طرابلس وصيدا وصور[٤]، كما كانت لها علاقاتها الاقتصادية مع المدن الداخلية المجاورة لها فهي ميناء هام لدمشق والبلاد الداخلية، و يحمل منها التين والزبيب والزيت والزجاج والسكر إلى هذه المدن وإضافة إلى ذلك، فهي مدينة تجارية كبيرة[٥]، وأسواقها في غاية النظافة والجمال وصفها ناصر خسروا (ت٤٨١هـ) بقوله "صيدا وهي على شاطئ البحر أيضا يزرع بها قصب السكر بوفرة وبها قلعة حجرية محكمة ولها ثلاث بوابات وفيها مسجد جمعة جميل يبعث في النفس هيبة تامة وقد فرش كله بالحصير المنقوش وفي صيدا سوق جميل نظيف وقد ظننت حين رأيته أنه زين خاصة لمقدم السلطان أو لأن بشرى سعيدة أذيعت فلما سألت قيل لي هكذا عادة هذه المدينة دائما وفيها حدائق وأشجار منسقة حتى لتقول إن سلطانا هاويا غرسها وفي كل من هذه الحدائق كشك وأغلب شجرها مثمر[٦].

---

(١) أبو الفداء: تقويم البلدان، ص٢٥٢.

(٢) عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ، ص٢٣١.

(٣) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص٧٩.

(٤) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص٧٨.

(٥) الزين، أحمد عارف: تاريخ صيدا، د. ن.، ١٩٩٣م، ص٧٧.

(٦) خسرو، أبو معين الدين ناصر، سفر نامه، تحقيق يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد – بيروت، ١٩٨٣م، ص٤٩.

-عكا:

وقد وصفها ابن جبير فقال "هي مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق. سككها وشوارعها تفض بالزحام وتضيق فيها مواطئ الأقدام[١]، كما كانت سوقا هاما لبيع المماليك[٢]. ووصفها ابن شداد بقوله "وهي مدينة واسعة الأرجاء، كثيرة الضياع، ولها مرسىّ مأمون"[٣].

- نابلس:

وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار، مطردة الأنهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً[٤]، وهي ذات أسواق حسنة و صناعات راقية وتجارات نافقة، وأنتجت الزيت والصابون وصدرتهما إلى دمشق وبخاصة الجامع الأموي. فقد ذكر ابن بطوطة[٥] وأنه كان يحمل منها الزيت إلى دمشق ومصر". وأنتجت الصابون النقي. وكان يزيد عن حاجة الاستهلاك المحلي فيصدر إلى كافة البلدان. بالإضافة إلى البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة ودبس الخروب[٦].

المطلب الثاني المؤسسات التجارية في بلاد الشام

فاقت شهرة الشامين جميع أنحاء العالم باعتنائهم ببضائعهم كما تمتع التجار بذكائهم الذي لا يجاري واطلاعهم الواسع على كل مقتضيات الصنعة من هندسة وقياس ومساحة وحساب، كما تمتعوا بذوق سليم وإحساس مرهف في الوضع والصنع. والتاجر الذي يخلو من هذه الصفة لا يحق له أن يصير تاجرا، وتتجلى هذه الشهرة بعرض الصنائع بحيث تغري بالشراء، لذلك قامت الصناعات في أحياء خاصة، وكل صانع يجعل أمام متجره مكانا يمرض فيه مصنوعاته عرضا يلفت النظر، ويغري بالشراء، وكذلك يفعل التجار في سلعهم، وقد أقيمت في كل من مصر بلاد الشام عمائر تجارية مختلفة، وهذه العمائر التجارية وان اختلفت أسماؤها وطرز عمارتها، إلا أنها تهدف إلى غرض واحد، هو خدمة الحركة التجارية، وأشهر هذه العمائر الفنادق والقياسر والخانات والوكالات والمتاجر[٧] وفيما يلي عرضا لأبز هذه المؤسسات التجارية:

- الفنادق:

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢١١.

(٢) زيتون، عادل، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص١٧٩.

(٣) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص٩٢.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٤٧.

(٥) المصدر السابق، ص٤٧.

(٦) المصدر السابق، ص٤٧.

(٧) القوصي، عطية، تجارة مصر في البحر الأحمر، منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٨١.

أسهمت الفنادق بشكل كبير في زيادة النشاط التجاري في العصر الأيوبي التي قال عن أسواقها بأنها حسنة البناء نظيفة... وعن صور: فنادقها المؤلفة من خمس طبقات أو ست وكلها متلاصقة، في كثير منها نوافير، وأسواقها جميلة كثيرة الخيرات والثراء، وكانت الفنادق تشتمل على كنيسة ومصرف ومدرسة وحرس ومحكمة وحمام فرن خاص بالمقيمين لصناعة الخبز وقاعات خاصة يسمح لهم فيها بشرب النبيذ، وكانت هذه المؤسسات مكتملة المرافق المعيشية يجتمع التاجر مع غيره من التجار، ويجد فيها ما يتوق إليه من طعام وماء للاستحمام ومكان لإيداع أمواله وغيرها[١]، وهكذا حققت الفنادق للتجار الإقامة الطيبة والراحة التامة والسوق لتصريف سلعهم ومتاجرهم.

- الخانات:

تعتبر الخانات من المنشآت العامة التي واكبت حركة التجارة في العصر الأيوبي في بلاد الشام ومصر. والخان بناء ضخم يحتوي على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات للبضائع ويتوسط الخان فناء كبير على هيئة رواق حيث يحفظ التجار بضائعهم وفي الخان يجد التجار المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلاتهم، وكانت تلك الخانات مخصصة لمزاولة بعض الأنشطة التجارية كالأسواق والقيساريّات وبعضها الآخر للتجارة الخارجية ولنزول القوافل التجارية وقد شهدت بعض الطرق التجارية نشاط حركة إنشاء الخانات وكانت تلك الخانات مصممة بشكل يوفر للتجار الأمان وهي أشبه بحصون يتحصن بداخلها ولولا ذلك لما أمن الناس على تجارتهم[٢].

- الوكالات:

وهي منشآت تجارية تشبه الفنادق بنظامها ووظائفها ولكنها تختلف عنها بأمرين اثنين: أولهما: أنها كانت مقتصرة على نزول التجار القادمين من بلاد الشرق الإسلامي بينما كانت الفنادق مخصصة للتجار الأجانب الايطاليين خاصة والأوروبيين عامة[٣].

---

[١] عادل زيتون: العلاقات الاقتصادية، ص٢٤٤.

[٢] أبو دمعة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، ص٢١٩.

[٣] المرجع السابق، ص٢٢٢.

المبحث الثاني السلع التجارية والصناعية في بلاد الشام في عهد الدولة الأيوبية

شهدت الدولة الأيوبية نشاطاً تجارياً مزدهراً، فقد ظهرت مراكز التجمع الحرفي والمهني في أسواق متخصصة، حيث كان هناك أسوق مختصة ببعض المهن الصناعية والمهنية، وقد أسهمت تلك المنشآت في زيادة النشاط التجاري والصناعي وهذا ما أكده ابن جبير عن حلب حيث ذكر: كانت أسواقها بديعة... تخرج من سماط صنعة وتدخل بسماط صنعة أخرى، وفيها جميع الصناعات المدنية[١].

وسوف يتناول هذا المبحث المطالب:

المطلب الأول: الصناعات الغذائية.

المطلب الثاني: الصناعات المعدنية.

المطلب الثالث: التجارة الداخلية بين مدن بلاد الشام والمدن الإسلامية الأخرى.

المطلب الأول الصناعات الغذائية

شكلت الصناعات الغذائية العنصر التجاري الأهم في الدولة الأيوبية فقد حرص الأيوبيون على توفير عنصرين أساسين في الصناعات الغذائية؛ الأول يتعلق بجودة تلك الصناعات والثاني يتعلق بالاحتياجات اليومية للمواطنين.

ولتحقيق هذا الأمر فقد أصدرت الدولة الأيوبية التعليميات الخاصة بالصناعات الغذائية وألزمت المؤسسات الصناعية بالتقيد التام بالتعليمات الخاصة بهذه الصناعة مثل صناعة الخبز. فقد أورد الشيرزي أن التعليمات التي صدرت للخبازين في الدولة الأيوبية ألزمتهم بأن "ترفع سقائف حوانيتهم، وتفتح أبوابها، ويجعل في سقوف الأفران منافس، واسعة يخرج منها الدخان، لئلا يتضرر بذلك الناس، وإذا فرغ الخباز من إحمائه، مسح داخل التنور بخرقة نظيفة، ثم شرع في الخبز، ويكتب المحتسب في دفتره أسماء الخبازين ومواضع حوانيتهم، فإن الحاجة تدعوه إلى معرفتهم، ويأمرهم بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسيل المعاجن ونظافتها، وما يغطى به الخبر، وما يحمل عليه، ولا يعجن العجان بقدميه، ولا بركبتيه، ولا بمرفقيه؛ لأن في ذلك مهانة للطعام، وربما قطر في العجين شيء من عرق إبطيه، وبدنه، فلا يعجن إلا، وعليه ملعبة أو بشت مقطوع الأكمام، ويكون ملثما أيضا؛ لأنه ربما عطس أو تكلم، فقطر شيء من بصاقه أو مخاطه في العجين، ويشد على جبينه عصابة بيضاء، لئلا يعرق فيقطر منه شيء في العجين، ويحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين، وإذا عجن في النهار فليكن عنده إنسان في يده مذبة يطرد عنه الذباب، هذا كله بعد نخل الدقيق بالمناخل السفيقة مرارا[٢].

---

[١] ابن جبير، الرحلة، ص٢٢٦.

[٢] الشيزري، نهاية الرتبة، ص٢٢ -٢٤.

وفي ذات السياق أورد ابن الإخوة (٧٢٩هـ) التعليمات الخاصة بالمطاحن بقوله "يلزم الدقاقون" غربلة الغلة من التراب، وتنقيتها من الزوان، وتنظيفها من الغبار قبل طحنها، ولهم أن يرشوا على الحنطة ماءًا يسيرًا عند طحنها، فإن ذلك يكسو الدقيق بياضا وجودة ويغير عليهم مناخل الدقيق في كل ثلاثة أشهر، أو أقل من ذلك، وربما يكون في صوفه ضعف، ويعتبر المحتسب الدقيق فإنهم ربما يخلطوا فيه دقيق الحمص، أو الفول حتى يزيده زهرة، وهذا غش فمن وجده فعل شيئا من ذلك أنكر عليه، وأدبه"[١].

ولأن الخبز سلعة أساسية فقد انتشرت الطواحين لطحن الحبوب في جميع أودية الأنهار في بلاد الشام[٢]، حيث وجد في دمشق طواحين كثيرة مقامة على أوديتها وعدد ابن عساكر ثلاثا داخل السور وتسعا خارج المدينة[٣]. وأقيمت الطواحين على نهر القويق شمال وجنوب مدينة حلب[٤] وأقيمت في بعلبك وطرابلس وحمص وحماة وقلما خلت مدينة أو قرية من الرحى (الطاحونة)، وكانت البغال والحمير والثيران تدير الطواحين الكبيرة لطحن الدقيق، وكانت الحجارة المستعملة في هذه الطواحين من النوع البازلتي الأسود الغالي الثمن وقد يصل ثمن الواحدة منها خمسين دينارًا[٥].

وكان من أشهر الصناعات الغذائية في بلاد الشام في العصر الأيوبي ما يلي:

١- السمن:

وهو من المواد الرئيسية، وكان أهل البدو هم أهل الاختصاص فيها، وقدر وكان رطل السمن يحتاج إلى خمسة وعشرين رطلا من اللبن[٦].

٢- الجبن الأبيض:

واشتهر منها الجبن الكركي والحموي والبعلبكي وكان يصدر منه إلى الديار المصرية[٧]. وكما صنعت القشدة والتي تستخدم في الطعام وصناعة الحلويات. كما كان الكشك الذي يعمل من جريش الحنطة واللبن من أطعمه الفلاحين في فصل الشتاء[٨].

---

(١) ابن الإخوة، محمد بن محمد بن أحمد، معالم القربة في طلب الحسبة، دار الفنوان، د.ن، ص

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٧٥. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص٩٢. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٢٧-٢٢٨. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ١٠٦.

(٣) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٢٦٩.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص٢٢٨.

(٥) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص١٤٤.

(٦) كرد على خطط الشام، ج٤، ص١٩٠.

(٧) المرجع السابق، ج٤، ص ١٥٧.

(٨) القاسمي، محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية المسمى بدائع الغرف في الصناعة والحرف، تحقيق: ظافر القاسمي، د.ن: دم شدت، ج٢، ص٣٨٨.

٣- صناعة العسل والسكر:

انتشرت صناعة العسل في جبال لبنان وعمان وغوطة دمشق والأراضي المحيطة بالقدس[١]. أما صناعة السكر فاشتهرت بها بلاد الشام في العصر الأيوبي وكانت الكميات المنتجة تفيض عن حاجة الاستهلاك المحلي، ويصدر الفائض منها إلى أوروبا[٢] قال محمد كرد علي "صناعاتهم الزراعية في القديم السكّر وكان يعمل في القديم على ضفاف الأردن ولا تزال معامله في جنوبي الغور تدعى إلى اليوم مطاحن السكر ، وكان السكر أكثر مستغل تلك الناحية يحمل إلى الشرق والغرب. وكان يصنع السكر في أنطاكية وطرابلس وعكا ويافا ويحمل منها إلى الآفاق"[٣].

٤- صناعة الأدوية كالمراهم والمعاجين المختلفة والجرشنات:

وهو دواء هاضم للطعام و غيرها وكان لا يسمح بتركيب الأدوية إلا لمن اشتهر بمعرفته وخبرته[٤].

٥- صناعة الزيت:

اشتهرت بلاد الشام بصناعة الزيت وذلك بسبب تواجد عدد كبير من أشجار الزيتون في مختلف أنحاء بلاد الشام في العصر الأيوبي وكان الزيت يعصر في معاصر لبنان وفلسطين والأردن وحلب والخليل والقدس ونابلس ودمشق والساحل الشامي، وقد تم تخصيص جزء كبير من هذا المنتج في صناعة الصابون[٥] كان الصابون الحلبي والنابلسي وغيره مما يفيض عن حاجة القطر يباع منه في الأقطار الأخرى. وكان الجبن الكركي مشهورا يصدر إلى مصر[٦].

٦- الصناعات النسيجية والصوفية والجلدية في الدولة الأيوبية:

اشتهرت بلاد الشام بالصناعات الصوفية والجلدية والأنسجة، واحتلت مدينة دمشق مقدمة تلك المدن، حيث وصفها الإدريسي (٥٦٠هـ) بقوله "ومدينة دمشق جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة العديم المثال الذي يحمل منها إلى كل بلد ويتجهز منها به إلى كل الآفاق والأمصار المصاقبة لها والمتباعدة منها ومصانعها في كل ذلك عجيبة يضاهي ديباجها بديع ديباج الروم ويقارن ثياب تستر وينافس أعمال إصبهان ويشف على أعمال طرز نيسابور من جليل ثياب الحرير المصمتة وبدائع

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ج٤، ص ١٥٧.

(٢) بيطار، تاريخ العصر الأيوبي، ص٢٢٠.

(٣) كرد، علي، خطط الشام، ص١٥٧.

(٤) الشيزري، نهاية الرتبة، ص٥٦.

(٥) كرد، خطط الشام، ج٤، ص١٩٠.

(٦) المرجع السابق، ص١٥٧.

ثياب تنيس وقد احتوت طرزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ومحاسن جمة"[١] واشتهرت الشام بالصناعات القطنية التي كانت تحاك على الطراز العربي وصناعتها كان غاية في المتانة و الجمال وتصدر تلك الصناعات إلى الأناضول ومصر والحجاز والعراق[٢]. وكان في حلب معامل للأقمشة، وبأطرافها مساحات كبيرة مزروعة بالقطن وكانت تستخدم وكانت طرابلس مركزا لصناعة المنسوجات الحريرية حيث اشتهرت بكثرة الصناع فيها [٣].

٧- صناعة الأصباغ:

اشتهر أهل الشام في صناعة الصباغ الأرجواني وغيره من الأصبغة[٤]، وكان من أهم أصباغهم الأصفران والزعفران سنوية تقدر بمائة وخمسين ألف دينار سنويا، وكثيرا ما كانوا يخلطون الأصباغ بالعطور لإضفاء رائحة عطرية للملابس[٥].

٨- صناعة الصوف:

انتشرت صناعة الصوف في الدولة الأيوبية بسبب كثرة قطعان الماشية فيها، ولم تكن هذه المهنة قاصرة على الرجال وحدهم بل امتدت لتشمل مشاركة النساء فيها[٦]، والى جانب صناعة الصوف اشتهرت صناعة الحصر في الدولة الأيوبية في أطراف بيسان وطبرية[٧]، وقد اشتهرت بجودتها وكانت من السلع المطلوبة في كثير من بلدان المشرق والمغرب[٨].

المطلب الثاني الصناعات المعدنية والخشبية

لم تقتصر الدولة الأيوبية على الصناعات الغذائية بل شهدت وجود صناعات أخرى مثل الصناعات المعدنية والخشبية، وقد كانت تلك الصناعات موضوع اهتمام الأيوبيين خاصة إن قسم من تلك الصناعات كان يخدم الجانب العسكري في الدولة الأيوبية.

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٣٦٩.

(٢) زيود، محمد أحمد ، حالة بلاد الشام الاقتصادية، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٢٦٣.

(٣) الحسيني، علي، تاريخ سوريا الاقتصادي، مطبعة بدائع الفنون، د.ت، ص ١٧٧.

(٤) بيطار، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة، ص ٣٣٥.

(٥) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ١٧٥.

(٦) كرد علي، خطط الشام، ج٤، ص ٢٠٣.

(٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٣٥٦.

(٨) ابن الإخوة، معالم القربة، ص.

أولا: الصناعات المعدنية في الدولة الأيوبية:

توفرت المعادن اللازمة للصناعات في الدولة الأيوبية نظراً لوفرة المواد الخام اللازمة لهذه الصناعات، ومنها الحديد الذي كان متوافرا في جبل لبنان[١]، وكان يصدر خام الحديد إلى مصر ودمشق لصناعة الأسلحة. ووجد الحديد في حلب[٢] وجبال اللاذقية[٣]. ومنطقة عجلون وكانت تنقل المواد الخام إلى قلعة عجلون ونصهر في أفران خاصة لاستخراج الحديد النفي[٤].

وكان القار أو الإسفلت يستخرج من البحر الميت واستخدم في صناعة الأسلحة وطلاء سيقان الأشجار لعلاجها من الآفات الزراعية واستخدمت أيضا في تلقيح الكروم[٥]. وكان الكبريت متوفر بكثرة في غور الأردن الشمالي على طول الجانب الشرقي للبحر الميت[٦]. ووجد معدن الذهب على ضفاف نهر العاصي وتدمر وأنطاكية[٧]. أما الفضة فقد كانت متوفرة في جبال اللاذقية وشمال بعلبك وفي قرية يعفور من أعمال دمشق[٨].

ثانيا: الصناعات الخشبية:

نشطت الصناعات الخشبية في بلاد الشام في العصر الأيوبي حيث كانت بلاد الشام عموما تمتلك ثروة خشبية ضخمة سهلت عملية انتشار الصناعات الخشبية عموما وصناعة السفن على وجه الخصوص[٩].

واشتهرت دمشق بصناعة الصناديق من خشب الجوز ذات البطسه[١٠]. واشتهرت صناعة السفن بمختلف أنواعها وكانت هذه السفن تحمل بضائع ثقيلة كما كانت تحمل ركاباً[١١]. وصنعت الدولة الأيوبية أنواعا من السفن مثل الشواني والحراقات وغرف والطرادة، وهناك سفن صغيرة مثل الفلوكة والشبابيك.

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٤. الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٣٧١.

(٢) ابن شداد، الأعلاف الخطيرة، ج١، ص ١٥٣.

(٣) الغزي، نهر الذهب، ج١، ص٤٧.

(٤) غوانمة، تاريخ شرقي الأردن، ص ٩٥ –٩٦.

(٥) المرجع السابق، ص ٦٩.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٤.

(٧) الغزي، نهر الذهب، ج١، ص ٤٣. كرد علي، خطط الشام، ج٤، ص١٦٢.

(٨) كرد علي، خطط الشام، ج٤، ص ١٦٣.

(٩) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٧، حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج٢، ص٢٤.

(١٠) أبو شامة، كتاب الروضتين، ج٢، ص١٨٧.

(١١) القوصي، تجارة مصر، ص١٤.

المطلب الثالث التجارة الداخلية بين مدن بلاد الشام والمدن الإسلامية الأخرى

نشطت التجارة الداخلة بين الأقاليم التي سيطر عليها الأيوبيون على الرغم من السيطرة الفرنجية على حصني الكرك والشوبك الواقعتين على طريق القوافل، وزاد حجم المبادلات التجارية بشكل خاص بعد استعادة صلاح الدين لهذين الحصنين وفرض الأمن في المنطقة من جهة، وتشجيعه الدائم للتجارة الخارجية والداخلية البرية من جهة أخرى[١].

بعد أن تمكن صلاح الدين من الاستيلاء على العقبة سنة (٥٦٦هـ/١١٧٠م) وبذلك أصبح الطريق ميسرا لتنقل القوافل التجارية بين دمشق والقاهرة[٢]. وزاد حجم المبادلات التجارية بعد أن استعاد صلاح الدين الكرك والشوبك من سيطرة الفرنجة سنة (٥٨٤هـ/١١٨٨م) وعقد صلح الرملة مع الفرنج سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م)[٣].

وعمل كثير من سكان مصر والشام بالتجارة و أثروا من ورائها[٤]. كما كانت التجارة مزدهرة بين الشام والجزيرة العربية والعراق وذاعت شهرة دمشق وحلب وطرابلس واللاذقية وصور وعكا كمحطات تجارية. ولكن وجود بعض الإمارات الفرنجية أدى إلى تعذر استخدام بعض الطرق التجارية[٥].

وكانت السلع والبضائع تنقل على ظهر الدواب كالبغال والحمير والجمال[٦]. وأما النقل المائي فكان يتم عن طريق البحر الأبيض المتوسط بين بلاد الشام ومصر عبر موانئ أنطاكية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور وعكا[٧]. كما كانت تنقل البضائع عن طريق البحر الأحمر وكانت العقبة ثغر الشام على تجارة الشرق، وكانت البضائع تشحن من العقبة إلى دمشق وحلب بقوافل برية. كما استخدم البحر الميت للنقل المائي الداخلي بين الكرك وأريحا والقدس، حيث كانت السفن المشحونة تعبر البحر الميت من طرفه الجنوبي إلى شماله وبالعكس وكانت السفن تحمل السلع والغلال والأفراد. كما استغلت الدولة الأيوبية نهر الفرات للنقل المائي بين منبج والعراق[٨].

---

(١) بيطار، تاريخ العصر الأيوبي، ص٢٢١.

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص ٣١.

(٣) بيطار، تاريخ العصر الأيوبي، ص٢٢١.

(٤) سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م، ص٥٦.

(٥) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص ٢٤٠.

(٦) كاهن، تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٢٤.

(٧) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص ٢٤٢.

(٨) غوانمة، تاريخ شرقي الأردن، ص٦٦.

وقد صدرت بلاد الشام إلى مصر الأخشاب والحديد والنحاس والسيوف الدمشقية المشهورة والورق والصابون وبعض المواد الغذائية كالفستق الحلبي والفواكه المجففة والملح[١] والمنسوجات الشامية الراقية الصنع، كما كان يصدر القطن إلى مصر من الرملة ودمشق وحلب وبيت المقدس[٢]، وصدرت حمص وحماة الثياب والحبال[٣]. وكما صدرت بلاد الشام إلى مصر السكر وماء الورد والثلج والأصبغة كالنيلة والزعفران والفواكه الطازجة والمجففة كالزبيب والتين والمشمش والدراق والكرز والخوخ والأجاص والسفرجل والتفاح والحميز والرمان واللوز والجوز والبندق والكمثرى والبلح والصنوبر[٤]. ومن الصادرات الأخرى الملح من البحر الميت[٥]، والرخام من اللاذقية وبيت جبريل[٦].

وأما صادرات مصر إلى بلاد الشام فقد شملت المنسوجات الكتانية والكتان الخام والصناعات الجلدية والشمع والغلال[٧]. كما كانت بلاد الشام تستورد الحبوب من مصر في بعض السنوات التي تنقص فيها كميات الأمطار وأيام المحل[٨].

وكانت صادرات الشام إلى الجزيرة العربية تتكون من القمح والزيت والزيتون وماء الورد والأصبغة كالنيلة والزعفران والثلج والزجاج والأدوات الزجاجية[٩]. ومن الواضح أن التعاون بين بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن وحتى أثناء الغزوات الفرنجية[١٠].

---

(١) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص٢٤٣-٢٤٤.

(٢) البراوي، حالة مصر الاقتصادية، ص٢٥٤.

(٣) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٨٠ -١٨١.

(٤) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص٢٤٤.

(٥) الإصطخري، المسالك والممالك، ص٦٤.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٧٤.

(٧) خسرو، سفرنامة، ص ٦٧. البراوي، حالة مصر الاقتصادية، ص١٤٠.

(٨) البراوي، حالة مصر الاقتصادية، ص٢٦٢.

(٩) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص٢٤٥.

(١٠) عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣٦٥.

المبحث الثالث التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة آنذاك في بلاد الشام (سواء في عكا على الساحل الفلسطيني، وفي مدينتي أنطاكية وطرابلس)

مثلت الحروب الفرنجية احد أهم المعالم البارزة في تاريخ الدولة الإسلامية عموما والدولة الأيوبية على وجه الخصوص، ذلك أن عبئ مواجه الفرنجية وقع على عاتق الدولة الأيوبية، والتي استمرت بالعمل لتخليص المدن الشامية من الاحتلال الفرنجي.

إلا أنه وبالرغم من حالة الحرب بين الأيوبيين والفرنجة، فقد ظلت الحركة التجارية مستمرة بصورة محدودة أُناء الهدنات أو التهدئة التي كانت تشهدها حالات السجال بين الطرفين، ولعل الباعث على استمر النشاط التجاري بين الحربين بالرغم من حال الحرب يعود بالأساس إلى حاجة الطرفين للمواد الخام[١].

فقد كانت أوروبا بحاجة إلى المواد الخام المتوفرة في المدن الإسلامية، وفي المقابل كانت الدولة الإسلامية بحاجة إلى المواد المتوفرة في أوروبا لتطوير إنتاجها وبالتالي زيادة قدرتها الاقتصادية من هنا كانت العلاقات التجارية بين الطرفين ضروه ملحة لحاجة كل من الطرفين للآخر وهذا ما يفسر استمرار التبادل التجاري حتى في حالات الحرب التي كانت دائرة بين الطرفين. ويأتي هذا المبحث لإلقاء الصورة على النشاط التجاري بين الأيوبيين وقوى الفرنجة في بلاد الشام من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة في عكا على الساحل الفلسطيني.

المطلب الثاني: التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة في مدينتي أنطاكية وطرابلس.

---

[١] رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٩م، ج٣، ص٦٠٤.

المطلب الأول التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة في عكا على الساحل الفلسطيني

شكل الاحتلال الفرنجي لبعض المدن الشامية عائقاً أمام حركة التجارة الداخلية، الأمر الذي أدى إلى توقف تلك التجارة بين المدن المحتلة والبلاد المجاورة لها استمرت لفترة طويلة حتى استكمل الفرنجة السيطرة على الموانئ الشامية، ولم يجد التجار سبيلاً من التعامل مع الفرنجة سواء من اجل المرور في الأراضي التي يسيطر عليها الفرنجة أو من أجل التبادل التجاري مع الأساطيل التجارية التي كانت تمر في المدن الساحلية الشامية لذا ظهرت الهدنات مع دمشق خاصة فيما يتعلق بتأمين السيل، وفرض الفرنجة ضرائب على التجار مقابل مرورهم في الأراضي التي يسيطرون عليها[١].

والملاحظ أنه وبالرغم من الحروب التي كانت دائرة بين الفرنجة والأيوبيين إلا أن الحركة التجارية ظلت مستمرة، لذا وصف ابن جبير ذلك بقوله "ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم وإرفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت، الذي هو شهر جمادى الأولى، من ذلك خروج صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكرك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو اشف قليلا، وهو سرارة ارض فلسطين، وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة، يذكر أنه ينتهي إلى أربع مئة قرية، فنازله هذا السلطان وضيق عليه وطال حصاره، واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك. وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الآمنة على غاية. وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب[٢].

وقد كانت العلاقات التجارية بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام مستمرة رغم الحروب التي كانت تقع بين الطرفين، ولعل ذلك يعود إلى وجود المواد الخام في بلاد الشام وهي مواد ضرورية قامت عليها كثير من الصناعات في بلاد الشام بحيث لم يستطع المسلمون الاستغناء عنها، ومما يؤكد وجود تلك المواد الخام اللازمة للصناعة في المدن الشامية ما ذكره ناصر خسرو من أن الرملة كانت تشتهر بتوافر كميات كبيرة من الرخام الأخضر والأبيض والأحمر والأسود ومن كل لون[٣] أما مدينة بيروت فهي كما ذكر ابن شداد أن تقع على مقربة من جبل فيه حديد ومعادن[٤]

---

(١) محمود، شاكر، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، ص٤٨١.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٢٣٤.

(٣) خسرو، سفر نامه، ص٥٤.

(٤) ابن شداد، عز الدين محمد بن علي، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٣م، ص١٠١.

وهذا الحديد كان من أجود الأنواع وأفضلها حيث ذكر ابن بطوطة إن الحديد المستخرج من الجبال المجاورة لبيروت كان يرسل إلى دمشق والقاهرة لصناعة الأسلحة[١].

ولعل سر ازدهار الحركة التجارية بين الدول الأيوبية والفرنجة يعود إلى تنوع الإنتاج الزراعي والصناعي، حيث أسهم هذا التنوع في جذب أنظار التجار بالرغم مما تعانيه المنطقة من حروب بين الطرفين، بل أن حجم التبادل التجاري بين مملكة بيت المقدس والإمارات الفرنجية، حيث كانت التجارة الداخلية في بلاد الشام تقوم على المنتجات الزراعية والصناعية والمعدنية، وفي الغالب يقوم المنتجون أنفسهم بالتجارة باعتبارهم صناع وتجار في نفس الوقت أو مزارعون ومتاجرون معا، علما أن ذلك لم يمنع وجود تجار مختصين بتجارة المحاصيل الزراعية أو الصناعية في المدن الشامية وبالرغم من عدم وجود أرقام دقيقة عن حجم النشاط التجاري الداخلي في بين المدن الشامية والفرنجة، إلا أنه من المؤكد أنها كانت تجارة واسعة[٢].

وتنوعت السلع التي كانت تشكل أساس حركة التجارة الداخلية فهناك المحاصيل الزراعية مثل الخضروات والفاكهة وزيت الزيتون زغيرها من المحاصيل والتي كانت تشتهر بها مدن بلاد الشام، إضافة إلى المنتوجات الصناعية مثل الصابون والحرير والمنسوجات والزجاج المطلي[٣].

ومما هو جدير الملاحظة أن تنوع الإنتاج الزراعي والصناعي بين مختلف مدن بلاد الشامل أدى إلى تكامل الحركة التجارية الداخلية بين تلك المدن من جهة كما عزز التبادل التجاري بين تلك المدن والقرى من جهة وبين الأسواق الأوروبية من جهة أخرى[٤].

فقد امتازت حياة الفرنجة في بلاد الشام بنشاط اقتصادي واسع، وإن كان الفرنجة لم يسهموا في ذلك تطوير النشاط الاقتصادي إلا بقسط ضئيل، فقد كانت بعض المدن التي احتلها الفرنجة بالأساس مدن إنتاجية، وعند احتلال الفرنجيين لها فقد سعوا إلى الاستفادة من خيرات المدن عن طريق تصديرها إلى أوروبا وبخاصة منتوجات الزيتون والموالح، أما قصب السكر فقد عرف الفرنجة زراعته في الشام كما تعلموا كيفية استخراج السكر منه، فأقاموا المصانع لاستخراج السكر، كما قام الفرنجة بتصدير الأقمشة الشامية والملابس وبخاصة الحرير إلى الغرب[٥].

فقد اكتفى الفرنجة بملكية الأراضي الزراعية وتركوا أمر زراعتها لأهلها الأصليين بشرط أن تكون المحاصيل مناصفة بين المزارع وصاحب الأرض، وقد اهتم الفرنجة بالمنسوجات والأقمشة الشامية من حرير ومخمل، حتى أن الملك لويس التاسع كان مغرما بالمخمل لدرجة أنه

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٣٠.

(٢) محمود، شاكر، فلسطين ما بين العهدين الفاطمي والأيوبي، ص٤٨١.

(٣) النقر ،محمد الحافظ، التجارة الداخلية والخارجية للعالم الإسلامي في العصر الوسيط، دار المسار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، ص٩٩.

(٤) زيود، التجارة بين بلاد الشام ومصر، ص١٣٢.

(٥) عاشور، سعيد، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطي، ص٣٢٦.

كلف حوانفيل لدى زيارته لطرطوس أن يبتاع له كميات كبيرة من هذا المخمل لتوزيعه على المؤسسات الدينية، وكانت من بين أشهر المدن الشامية بإنتاج المخمل والحرير صور وطرابلس وأنطاكية و طرطوس[١].

ومما هو ثابت في المصادر التاريخية أن احتلال الفرنجة لبعض المدن الشامية لم يسهم في تطوير الإنتاج سواء الزراعي أم الصناعي، بل أن احتلال تلك المدن قد أدى إلى تدهور الصناعة والإنتاج فيها، حيث خرج أغلب الصناع من المناطق المحتلة مما أدى إلى تراجع الصناعة وفي أحيان كثيرة توقفها[٢]. وفي المقابل فقد سعت الفرنجة إلى الاستفادة من المدن التي وقعت تحت سيطرتهم، فزادوا مساحة الأراضي الزراعية التي تُزرع بقصب السكر واحتكروا مصانع القصب في عكا وصور، كما اهتم الفرنجة بالصناعات الحربية مثل صناعة السروج والأسلحة نظرا لأهميتها في الحروب، على أن هذا النشاط الصناعي الواسع الذي قام به الفرنجة كان يعتمد بالأساس على طبقة المزارعين والصناع المتبقية في المدن التي سيطر عليها الفرنجة، كما حرص الفرنجة على استغلال الموارد المتوفرة والصناع في المدن الشامية التي تقع تحت سيطرتهم وخاصة في صناعة القطن والحرير نظرا لأهميتها التجارية وخاصة مع الغرب[٣].

وكان لليهود نشاط تجاري بارز في الإمارات التي احتلها الفرنج خاصة في منطقة صور ويافا وعكا وأنطاكية ودمشق، خاصة فيما يتعلق بصناعة الزجاج وتصديره إلى أوروبا ، كما احتكر اليهود صناعة الأصباغ والجلود وتحضير الفراء[٤].

على أن حجم لتبادل التجاري بين الدولة الأيوبية وبين الإمارات الفرنجية في بيت المقدس التي كانت تشكل الواجهة البحرية بما ضمته من موانئ تجارية من بلاد الشام كان كبيرا[٥] حيث مثلت عكا أحد أهم المدن الفرنجية على ساحل بلاد الشام نظرا للنشاط التجاري للفرنج بسبب موقعها التجاري الاستراتيجي، ويرجع السبب في ذلك إلى أنها مدينة محصنة جيدا على شاطئ البحر ولها ميناء يصلح لرسو السفن طيلة أيام السنة مما جعل منها مركزا تجاريا كبيرا حيث كانت السلع والبضائع على اختلاف أنواعها تمر بمدينة عكا[٦]. لذا فقد وصفها ابن جبير بقوله "هي قاعدة مدن الافرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في

---

(١) الشامي، أحمد، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٥م، ص٢٠١.

(٢) الحافظ، التجارة الداخلية والخارجية للعالم الإسلامي، ص٩٩.

(٣) زيود، التجارة بين بلاد الشام ومصر، ص١٣٢.

(٤) الشامي، أحمد، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص٢٠٣.

(٥) الحايك، منذر، العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، ص١٨٧.

(٦) الراهب دانيال، وصف الأرض المقدسة في فلسطين، تعريب سعيد عبدالله بيشاوي وداود أبو هدية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ص١٠٥.

عظمها بالقسطنطينة، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام، وتضيق فيها مواطئ الأقدام"[١]

ومن الطبيعي أن تستقبل الموانئ والمدن الفرنجية في الشام بعضا من التجار المسلمين وخاصة المغاربة والذين استخدموا البحر المتوسط في تجاراتهم حيث كان لهؤلاء التجار خانات خاصة ينزلون بها في الموانئ التي احتلها الفرنجة[٢].

ومما يدل على ازدهار مدينة عكا تجاريا وان حركة التجار المسلمين كانت تجوب البلاد الواقعة تحت سيطرة الفرنج ما ذكره ابن جبير في الرحلة بقوله "وقيض الله لهم بدمشق رجلين من مياسير التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء: أحدهما يعرف بنصر بن قوام، والثاني بابي الدّر ياقوت مولى العطافي، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعهما، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير، وقد نصبهما الله عز وجل لافتكاك الأسرى المغربيين بأموالهما وأموال ذوي الوصايا، لأنهما المقصودان بها لما قد اشتهر من أمانتهما وثقتهما وبذلهما أموالهما في هذه السبيل فلا يكاد مغربي يخلص من الأسر إلا على أيديهما فهما طول الدهر بهذه السبيل ينفقان أموالهما ويبذلان اجتهادهما في تخليص عباد الله المسلمين من أيدي أعداء الله الكافرين، والله تعالى لا يضيع أجر المحسنين[٣].

وقد كان تجار دمشق والفلاحين المسلمين يتوافدون على أسواق عكا بمنتجات بلادهم من المحاصيل المختلفة وهناك يقبل سكانها من الفرنجة على شراء تلك المحاصيل الزراعية[٤].

وكانت الفرنجة يفرضون على التجار المسلمين ضريبة، وهذا ما أكده ابن جبير بقوله "وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمنة على غاية، وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم"[٥]، وكان التجار الإفرنج يدفعون في بلاد الإسلام ضريبة العُشر فقط، بينما التجار المسلمون يدفعون في بلاد الإفرنج ضريبتين هما: ضريبة الرأس ومقدارها دينار وقيراط، وضريبة العشر ومقدراها قيراط[٦].

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٤٩.

(٢) الشامي، أحمد، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص٢٠٣.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٣٩

(٤) محمود، علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين، ص٦٢.

(٥) ابن جبير، الرحلة، ص٢٦٠.

(٦) العزام، عيسى، صورة الآخر في التراث العربي الإسلامي العلاقات مع الإفرنج في رحلة ابن جبير ٥٧٨-٥٨١هـ/١١٨٢- ١١٨٥م، مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد الثالث عشر، العدد١، ٢٠٠٠م، ص٢٠٠.

المطلب الثاني التجارة الأيوبية مع القوى الفرنجية المتواجدة في مدينتي أنطاكية وطرابلس

تمكن الفرنجة من احتلال إمارة أنطاكية سنة (٤٩٠هـ) وأعلن بوهيمند قيام الإمارة الفرنجية الثانية كما أعلن نفسه أميرا على أنطاكية[١]. وقد أشار ابن جبير في رحلته عن العلاقات الحربية بين المسلمين والفرنجة، في معرض حديثه عن بعض المدن الشامية التي احتلها الفرنجة، ومن تلك المدن جبل البنان باعتباره الحد الفاصل بين بلاد المسلمين والفرنجة، إذ قال: "جبل لبنان المذكور هو حد بين بلاد المسلمين والإفرنج، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهما من بلادهم، أعادها الله للمسلمين، وفي سفح الجبل المذكور حصن يعرف بحصن الأكراد، هو للإفرنج، ويغيرون منه على حماة وحمص، وهو بمرأى العين منهما. فكان وصولنا مدينة حماة في الضحى الأعلى من يوم السبت المذكور، فنزلنا بربضها في أحد خاناته"[٢].

وقد اشتهرت أنطاكية بصناعة المنسوجات الحريرية والزجاج والفخار مما جعل لها مكانة تجارية متميزة محلية وعالمية، كما اشتهرت أنطاكية بوجه خاص في إنتاج المواد الخام اللازمة لصناعة المنسوجات الحريرية، والزجاج والفخار والصابون وهي مواد لم تكن البلدان الإسلامية في بلاد الشام في غنى عليها[٣] وكانت أنطاكية تشترك في إنتاج المواد الخام مع كل من صور وطرابلس وطرطوس في إنتاج المواد الخام اللازمة لصناعة الملابس الحريرية التي نالت شهرة واسعة في الشرق والغرب[٤].

وفيما يتعلق بطرابلس فقد امتازت هذه المدينة بخصوبة أرضها وتنوع إنتاجها الزراعي، ويرجع الفضل في ذلك إلى وفرة الموارد المائية[٥]، فقد كانت طرابلس من أغنى الإمارات الفرنجية بالموارد المائية، لذا فقد حاول حكام إمارة طرابلس من الفرنجة السيطرة على مصادرها المائية من منابعها إلى مصبها لأن من شان ذلك أن يؤمن لدهم عدم الخضوع لأي تهديد قد يأتي من خارج الإمارة، حيث احتوت إمارة طرابلس ما يقرب من نصف أنهار لبنان مما زاد من قيمتها الزراعية والإستراتيجية[٦].

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٣١.

(٢) ابن جبير، الرحلة، ص٣١.

(٣) رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٩م، ج٢، ص٢٣٢.

(٤) محمود، علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦م، ص١٢.

(٥) الجوهري، نهى، إمارة طرابلس الصليبية في القرن السابع الهجري، دار العالم العرب للطباعة والنشر، القاهرة، ص١٠٥.

(٦) عوض، محمد مؤنس، الحروب الصليبية السياسة - المياه – العقيدة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م، ص٧١.

وقد اشتهرت إمارة طرابلس بإنتاج الحبوب كالعدس والأرز والفول والسمسم، إلا أن محاصيل القمح والشعير كانت الأكثر انتشارا في مدينة طرابلس، خاصة في مناطق قلاع الدعوة وسهل البقيعة[١]. وقد كانت طرابلس من أشهر مدن بلاد الشام في صناعة الورق وبخاصة ورق السمرقندي حيث كان يتم إرسال كميات كبيرة منه إلى المدن الشامية المختلفة لجودته وشهرته بل كان يتفوق على الورق الذي صنع في سمرقند نفسها من ذلك النوع، هذا جانب أنها كانت من المصادر الهامة للحصول على مواد الصباغة التي اعتمد على نوع من النباتات كانت تستخرج منه أصباغ أرجوانية اللون[٢].

وقد لعب التجار المسلمين وكذلك المسيحيين الشرقيين دورا هاما في نقل السلع والبضائع بين الطرفين الإسلامي والفرنجي، حيث قامت علاقات واسعة بين التجار المسلمين وتجار الفرنجة دون الالتفات إلى العامل الديني، وفي هذا يقول ابن جبير "واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، وتجار النصارى أيضًا لا يُمنع أحدٌ منهم ولا يُعترض"[٣] ويؤكد ابن جبير أن الحركة التجارية كانت مستمرة بين التجار المسلمين وتجارة الفرنجة فيقول "ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين[٤] ويؤكد ابن الأثير على العلاقات الطيبة التي كانت بين التجار المسلمين والفرنجة في المدن التي خضعت لحكم الفرنجة، حيث أن مدنا كثيرة مثل عكا وبيروت وغيرهما كانت تزخر دائما بالتجار المسلمين من كل مكان[٥].

يضاف إلى ما سبق أن بعض المدن الشاملة التي وقعت تحت حكم الفرنجة كانت لها شهرة واسعة في إنتاج بعض السلع قبل الاحتلال الفرنجي، فقد كانت مدينة طبريا على سبيل المثال تشتهر بصناعة الحصير وخاصة حصير الصلان حيث بلغ ثمن القطعة الواحدة من الحصير في بعض الأحيان ٥ دنانير ذهبية[٦].

---

(١) خسرو، ناصر، سفر نامة، ص١٣.

(٢) محمود، علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين، ص١٣.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص٢٦٠.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص٢٦٠.

(٥) محمود، علي، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٦م، ص٥٦.

(٦) ناصر خسرو، سفر نامة، ص٥٣.

الفصل الثاني
التجارة الخارجية في الدولة الأيوبية

- المبحث الأول: طرق التجارة الدولية البرية والبحرية بين الشرق الأقصى وأوروبا.
- المبحث الثاني: التجارة مع جزر البحر المتوسط (قبرص، ورودس، وكريت، وصقلية كأنموذج لتلك العلاقات التجارية مع جزر المتوسط).
- المبحث الثالث: العلاقات التجارية الأيوبية مع الدولة البيزنطية.

المبحث الأول طرق التجارة الدولية البرية والبحرية بين الشرق الأقصى وأوروبا

لعبت مصر والشام دورا هاما في التجارة الخارجية للدولة الأيوبية، فقد امتلكت مصر عوما جذب للجار بحكم موقعها كنقطة وصل بين الشرق والغرب كما شكلت مص سوقا هاما للتبادل التجاري بين إفريقيا واسيا وبلاد البحر المتوسط[١].

لذا حرص الفرنجة في السيطرة على الطرق التجارية الرئيسية التي ربطت المدن الشامية ببعضها، وكذلك تلك التي ربط الشام بمصر والجزيرة العربية على طول الساحل السوري حتى شمالي مصر وساحل البحر الأحمر، واعتبر الفرنجة بعض المدن الشامية هامة ولا يمكن التفريط بها نظرا لموقعها التجاري المتميز، وفي مقدمة تلك المدن مدينة الرها التي احتلها الفرنجة في عام ١٠٩٨م، والتي كانت تربط بين بلاد الأرمن وأنطاكية في الغرب ودمشق إلى الجنوب الغربي[٢].

ونظرا لتعدد الطرق التجارية ؛ فمنها ما كان برى ومنها ما كان بحري فقد خصص هذا المبحث إلقاء الضوء على طرق التجارة الدولية البرية والبحرية بين الشرق الأقصى وأوروبا من خلال مطلبين هما:

المطلب الأول: طرق التجارة الدولية البرية بين الشرق الأقصى وأوروبا.

المطلب الثاني: طرق التجارة الدولية البحرية بين الشرق الأقصى وأوروبا.

---

[١] ربيع، حسنين محمد، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤م، ص٢٤.

[٢] ارنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٧م، ص٤٧.

المطلب الأول طرق التجارة الدولية البرية بين الشرق الأقصى وأوروبا

كان لبلاد الشام دورا مميزا في التجارة الدولية منذ القدم، وقد نالت المدن الشامية على اختلاف مواقعها حظا وافرا من تلك التجارة، ولم تنته العلاقات التجارية بين الشام والغرب الأوروبي بالفتوحات الإسلامية بل سعى المسلمون إلى تعزيز التجارة مع العالم الخارجي، حيث فتحت أسواق الشام وتجارتها مع الغرب الأوربي بشكل كبير[١].

كما شكلت المدن الساحلية في بلاد الشام ابرز المحطات التجارية التي استخدمها التجار لنقل البضائع الشامية، وكان لموقع بلاد الشام ميزة كبيرة في التجارة الخارجية للدولة الأيوبية، وذلك لسببين رئيسيين؛ الأول أن مدن بلاد الشام كانت تشكل نقطة الوصل بين مدن الشرق والغرب حيث أن طرق الموصلات تمر من سكك المدن وبخاصة الساحلية، والثاني أن تلك المدن بالإضافة إلى موقعها الاستراتيجي كانت تتميز بجودة إنتاجها مما جعل منها مركزا مهما في التجارة الخارجية الأيوبية[٢]

ولعل سبب اهتمام التجار الأجانب بمدن بلاد الشام يرجع بالأساس إلى الاتصال الوثيق بين المدن الشامية وأسواق الشرق، إضافة إلى أن المدن الشامية وموانئها كانت مهبط الحجاج المسيحيين الغربيين إلى بيت المقدس، وكانت مواسم الحج الإسلامية والمسيحية فرصة للتبادل التجاري بين الشرق والغرب، لذا فاقت الأسواق الشامية الأسواق المصرية في تنوع السلع التي ترد إليها[٣].

ولعل حرص الدول الأوربية على إقامة علاقات تجارية واسعة مع بلاد الشام يرجع بالأساس على حاجة أوروبا إلى السلع الشرقية والتي كانت أسواق بلاد الشام تكتظ بها وخاصة التوابل والحرير والعاج، والتي كانت تتدفق إلى بلاد الشام عبر موانئ الخليج العربي وأسيا الصغرى ومصر، وبالتالي فقد شكلت المدن الشامية مثل دمشق وحلب محطات تجارية بالغة الأهمية بين الشرق والغرب، وقد مثلت المدن الشامية مركز جذب للتجار الأوربيين والذين توافدوا على تلك الأسواق لاستيراد البضائع الشرقية[٤]، فقد كانت قبرص تستورد التوابل والسلع الشرقية عبر الطريق القادم من سوريا وموانئها حتى أن أحد الرحالة الألمان ذكر أن التوابل في قبرص أكثر من الخبز في ألمانيا[٥].

---

[١] غوانمة، يوسف، التجارة الدولية في مناطق شرق الأردن من جنوب الشام دراسات تاريخية، ص٣٢٣.

[٢] زيتون، عادل، العلاقات الاقتصادية، ص١٨٨.

[٣] غوانمة، يوسف، التجارة الدولية في مناطق شرق الأردن من جنوب الشام دراسات تاريخية، المجلد٧، العدد ٢٣+٢٤، ١٩٨٦م، ص٣٢٣.

[٤] زيتون، عادل، العلاقات الاقتصادية، ص١٨٨.

[٥] غوانمة، يوسف، التجارة الدولية في مناطق شرق الأردن من جنوب الشام دراسات تاريخية، ص٣٢٤.

وفي المقابل اهتم الأيوبيون بتأمين الطرق التجارية الداخلية والخارجية فحرصوا على استرداد قلعة حارم التي تقع إلى الغرب من مدينة حلب، وبعد استرداد هذه القلعة اضطربت أوضاع الفرنج في مدينة أنطاكية فبعثوا بالمراسلات لصلاح الدين استرضاء له وأرسلوا إليه جماعة كبيرة من أسرى المسلمين وناشدوه بتجديد الهدنة معهم، وكان من شروط هذه الهدنة استمرار وصول التجار من حلب إليهم ليحصلوا على احتياجاتهم من البضائع، فحاصر صلاح الدين قلعة الكرك حتى تم فتحها، لذا كان الاهتمام بالطرق التجارية أمرا في غاية الأهمية من أجل تأمين الحركة التجارية وحماية التجار الوافدين إلى بلاد الشام والمغادرين منها[١].

وقد شهدت الطرق التجارية البرية القديمة والتي تبدأ من الصين والهند حتى سواحل الشام على البحر الأبيض المتوسط نشاطا واسعا في العصر الأيوبي، كما ارتبطت بلاد الشام مع مصر بطريق بري عن طريق الكرك ثم إلى غزة فمصر، وكانت هذه الطريق تربط أيضا منطقة السواحل والثغور في مصر وبلاد الشام[٢].

وكان من أشهر الطرق البرية التي ربطت بلاد الشام ببلاد الهند والصين شرقا طريق الحرير حيث يبدأ هذا الطريق من الصين ويمتد وسط أسيا وصولا إلى بخارى، ثم يسير عبر البحر الأسود إلى القسطنطينية، بعدها يتفرع هذا الطريق إلى عدة فروع باتجاه أوروبا، وكان أحد هذه الفرع يتّجه إلى بغداد وحلب حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط[٣].

وقد لعبت كل من دمشق وحلب دورا كبيرا في تجارة القوافل، فبعض القوافل التجارية كانت تأتي من الحبشة إلى مكة وجدة، وتتجه منها إلى الإسكندرية أو دمشق أو حلب، فقد كانت القوافل المحملة بالسلع الهندية والفارسية تأتي إلى دمشق ومنها إلى البحر الأبيض المتوسط على الساحل اللبناني، حيث كانت تلك القوافل تنطلق من دمشق متجهة شمالا عبر البقاع إلى حمص إلى موانئ المتوسط، كما كان هناك خطا آخر للقوافل يصل إلى الموانئ البحر المتوسط ابتداء من وادي دجلة ويصل إلى حلب ثم إلى أنطاكية ويعد هذا الطريق اقصر[٤].

على أن الطرق التجارية لم تكن كلها على نفس الشاكلة، فهناك الطرق الرئيسية وهي الطرق التي كانت معدة لتسلكها القوافل، وهناك الطرق العامة وهي نوع من الطرق يتصف بأنه وعر ويصعب على الجمال أن تسلكها[٥].

---

[١] أبو دمعة، أمين، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ١٩٨٨م، ص٢٤٠.

[٢] غوانمة، يوسف، التجارة الدولية في مناطق شرق الأردن من جنوب الشام دراسات تاريخية، ص٣٢٣.

[٣] غوانمة، يوسف، التجارة وسياسة الاعتدال والتسامح بين المسلمين والفرنج، بحث منشور في أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، ٢٠٠٠م، جامعة اليرموك، ج٢، ص٦٣٢.

[٤] أثر الشام الحضاري في مصر في العصر الأيوبي، ص١١٠.

[٥] الوزني، التجارة في الدولة الأيوبية، ص١٥٩.

وقد سلكت تجارة الشام زمن الأيوبيين عدة طرق تجارية برية وبحرية كانت تنتهي إلى الساحل الشرقي لشاطئ البحر الأبيض المتوسط، فعند ذلك الساحل انتهت الطرق البرية التجارية الآتية من الشرق الأقصى ومن خليج فارس، ومن البحر الأحمر على طول الشريط الممتد من أيله عبر سيناء والشام وكذلك الفرع القادم من جنوب آسيا الصغرى، والفرع القادم من أوروبا برا[١].

واتصلت بلاد الشام ببلاد الهند والصين والشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر (طريق البخور)، وكانت البضائع الشرقية تصل بحرًا إلى عدن، ومنها تسلك التجارة طريقين، الأولى برّية عبر اليمن وتهامة عسير والحجاز وصولاً إلى منطقة شرقي الأردن ومنها إلى دمشق. أمّا الثانية فتسلك طريق البحر الأحمر إلى القلزم (السويس) أو إلى آيلة (العقبة)، ومنهما إلى القاهرة أو دمشق وصولاً إلى الموانئ المصرية والشامية[٢].

أما أشهر الطرق التجارية البرية المؤدية إلى بلاد الشام والتي استخدمها التجار لنقل السلع والبضائع فتتلخص بالطرق الآتية:

١- طريق خليج فارس- بغداد:

ويعد هذه الطريق من أهم الطرق التجارية في العصور الوسطى، ويبدأ هذا الطريق من رأس الخليج العربي ثم يتجه بفروعه النهرية أو البرية من البصرة إلى بغداد حيث يتفرع فرعين: الأول يتجه شمالا إلى ديار بكر في حين يتجه الثاني غربا إلى دمشق ومنها تخرج فروع إلى موانئ ساحل الحر الأبيض المتوسط، ثم جنوبا إلى مصر بمحاذاة الساحل إلى غزة، ثم عبر الصحراء إلى القاهرة، وفرع يتجه شمالا إلى غرب حلب، ثم إلى أسيا الصغرى ليلتقي بالطرق القادمة من أسيا الوسطى ويتحد معها في القسطنطينية[٣].

٢- طريق الشام – مصر:

يتجه هذا الطريق من دمشق إلى طبرية فالرملة، ومن ثم غزة فالعريش فالقاهرة[٤] وهذا الطريق التجاري كان من أفضل الطرق التجارية التي تربط مصر بالشام إلا أن الفرنجيين وعند احتلالهم مدينة الشوبك عام ٥٠٩هـ/١١١٥م تمكنوا من قطع طريق القوافل التجارية بين مصر والشام، ولكن جهود نور الدين ومن بعده صلاح الدين الأيوبي انتهت باستيلاء صلاح الدين الأيوبي

---

(١) الحوير، محمود، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد "عصر الحروب الصليبية" دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، ص١٢٠.

(٢) غوانمة، يوسف، التجارة وسياسة الاعتدال والتسامح بين المسلمين والفرنج، بحث منشور في أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، ٢٠٠٠م، جامعة اليرموك، ج٢، ص٦٣٣.

(٣) فهمي، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص١١٨.

(٤) الحوير، محمود، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ص١٢٤.

على حصن الشوبك ومدن ساحلية أخرى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، وتأمين طرق القوافل في تلك المنطقة الهامة والتي تعتبر حلقة الوصل بين البلدان العربية في تلك الفترة[١]. وصار يسلك هذا الطريق على الرمل فسلكه المسافرون حينئذ إلى أن تولى السلطة في مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، فأنشأ بأرض السباخ على طريق الرمل بلدة عرفت بالصالحية سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م، فأقام بها وأقام بها السلاطين من بعده[٢].

٣- طريق القسطنطينية – أنطاكية:

ويبدأ هذا الطريق البري باختراق جبال طوروس من خلال الدرب الكبير المعروف بأبواب قيليقية ثم يجتاز سلسلة جبال أمانوس إلى أنطاكية خلال الدرب المعروف بأبواب الشام[٣].

٤- الطريق البري من وسط أسيا ومن الهند:

عبر جبالها وممراتها إلى نهر الأثيل ويتقابل مع القوافل الوافدة من الصين ثم يسيران معا حتى بخارى حيث يتفرع الوصول إلى بحر قزوين فنهر الفلجا وبلاد البلغار والثاني يتحه إلى البحر الأسود وموانئه ثم إلى القسطنطينية وأوروبا وتخرج فروع جانبية إلى حلب وساحل المتوسط[٤].

٥- طريق اليمن – مكة الشام:

وهذا الطريق يمر عبر الجزيرة العربية تقطعه القوافل بحذاء البحر الأحمر من اليمن حتى مكة ومنها إلى البتراء شمالا ومن البتراء إلى أسواق الشام وبلاد ما وراء النهر[٥].

٦- الطريق البري من أوروبا إلى بلاد المشرق:

ويبدأ هذا الطريق من بلاد الأندلس إلى طنجة فمضيق جبل طارق مجازا المغرب الأقصى والأوسط الأدنى عن طريق تونس حتى يصل إلى مصر ثم يتجه إلى بلاد الشام مجتازاً بالرملة ودمشق[٦] ولعل هذا الطريق من الطرق التجارية الهامة لأنه ينتهي إلى الصين مرورا بالعراق وبلاد فارس[٧].

---

(١) عاشور، سعيد عبدالفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص١٢٩.

(٢) عاشور، سعيد عبدالفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص١٢٩.

(٣) الحوير، محمود، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ص١٣٢.

(٤) فهمي، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ص١٥٤.

(٥) الحوير، محمود، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ص١٣٢.

(٦) الحوير، محمود، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر و الثالث عشر من الميلاد، ص١٢٤.

(٧) فهمي نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، ص١٥٤.

ومما هو جدير بالملاحة أن استقرار الأوضاع السياسية أسهم في زيادة حركة النشاط التجاري في بلاد الشام حيث شكلت دمشق المحطة الأولى للتجارة بين جنوب الجزيرة العربية برا ومنها إلى عكا وصور وبيروت[١]. وزاد النشاط التجاري في الشام عامة وفلسطين خاصة بعد صلح الرملة سنة (٥٨٨هـ/١١٩٢م) الذي جاء مؤكدا على حرية التجارة وتنقل القوافل بين المسلمين والفرنجة. فأقبل الحجاج على بيت المقدس آمنين ومعهم تجارتهم أحيانا. وأخذ النشاط يدب فيطرق التجارة في يافا والقدس نتيجة الأمن المستتب[٢].

أما على صعيد الطرق التجارية الداخلية بين مدن الشام فقد اشتهرت عدة بين تلك المدن من أبرزها، طريق دمشق – بانياس فتبنين وكان التجار يدفعون المكوس فيها وقيمتها دينار وقيراط من الدنانير الصورية[٣] على الرأس، أما الطريق الثاني فكان من دمشق إلى إربد إلى القصير فطبرية وينتهي بعكا وهذه الطريق كانت ممر لقوافل الجمال نظرا لصعوبة سير تلك القوافل في الشعاب الضيقة مثل طريق بانياس عكا[٤].

المطلب الثاني طرق التجارة الدولية البحرية بين الشرق الأقصى وأوروبا

كانت أغلب السلع والبضائع يتم نقلها على ظهور الدواب ، لكن النقل المائي فكان يتم عن طرسق البحر الأبيض المتوسط بين بلاد الشام ومصر، وأهم الموانئ الشامية التي كانت تقع على ساحل البحر المتوسط هي أنطاكية وطرابلس وبيروت وصور وعكا.

أما البحر الأحمر فقد شكل شريان التجارة الدولية نظرا لدورة المتميز في نقل السلع الشرقية إلى بلاد الشام[٥]، و شكلت منطقة العقبة نافذة الشام على الشرق وتجارته وكانت البضائع تشحن من العقبة إلى دمشق وحلب بواسطة القوافل البرية، كما تم استخدام البحر الميت للنقل الداخلي لربط منطقة الكرك بمنطقة أريحا والقدس[٦].

ونظرا لعدم وجود طرق بحرية مباشرة بين الشرق والغرب فقد كانت السفن الإيطالية تخرج متجهة غربا إلى أوروبا وشرقا إلى مصر والشام والأناضول، وكانت السفن أيضا تخرج من البندقية باتجاهين أحدهما إلى سواحل الشام مارا بكريت والآخر يتجه إلى الإسكندرية[٧].

---

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٩٣.

(٢) أبو عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص٩٠٠.

(٣) الدنانير الصورة عبارة عن عملة ذهبية وعليها نقوش عربية وآيات قرآنية كان يتعامل بها أهل الشام والعراق، انظر: القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، د.ت، ص١٩١.

(٤) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية، ص٢٤٠.

(٥) غوانمة، يوسف، التجارة الدولية في مناطق شرق الأردن، ص٣٢٤.

(٦) أبو دمعة الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص٢٤٢.

(٧) فهمي نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، ص١٧٨.

من بين أهم الطرق البحرية الموصلة إلى الموانئ الشامية طريق بحري من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر ثم يتجه شمالا بعد أن يترك البحر الأحمر عبر سناء إلى دمشق ثم موانئ ساحل البحر المتوسط[١].

ومن الطرق البحرية أيضا طريق الإسكندرية على البحر المتوسط إلى البرلس فدمياط عند مصب النيل الشرقي ومن هناك إلى غزة وعسقلان وعكا وصور وصيدا وبيروت وطرابلس الشام فاللاذقية، وقد كان هذا الطريق محط اهتمام الأيوبيين ففي سنة ٥٨٣هـ لما فرغ صلاح الدين من صيدا سار إلى عسقلان باعتبارها من أهم المحطات المؤثرة في التجارية بحيث إذا تمكنت السيطرة عليها أصبحت الطرق التجارية آمنه باعتبارها النافذة إلى الديار المصرية[٢].

والمتتبع للمصادر التاريخية يجد أن حركة الملاحة إلى موانئ بلاد الشام بلغت أوجها في العصر الأيوبي ولعل مرد ذلك إلى أمرين رئيسيين هما[٣]:

١- إن الملاحة في البحر المتوسط كانت حكرا على الجمهوريات الإيطالية وسفن الغرب الأوروبي حيث نجح الفرنجة في فرض حصار على الملاحة الإسلامية خاصة بعد انتزاع الموانئ الفلسطينية من أيدي المسلمين.
٢- نشطت حركة نقل الحجاج إلى بيت المقدس بعد قيام الكيانات الفرنجي في بلاد الشام حيث كانت عمليات النقل تتم بواسطة السفن البحرية

والى جانب العقبة تم استخدام البحر الميت في الحركة التجارية الداخلية بين مدن الشام والذي كان يربط منطقة الكرك بأريحا والقدس، حيث كانت السفن تنتقل من مدينة زغر في طرفه الجنوبي إلى الشمال وبالعكس محملة بالأغلال والأفراد[٤].

---

[١] الحوير، محمود، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ص١٢٤.

[٢] خريسات، محمد، الحياة الاقتصادية في مصر في العصر الأيوبي ٥٦٧- ٦٤٨هـ/١١٧١- ١٢٥٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨م، ص١٦٨.

[٣] الحوير، محمود، الاوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ص١٢٥.

[٤] غوانمة، يوسف، التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢، ١٩٨٢م، ص٩١.

المبحث الثاني التجارة مع جزر البحر المتوسط (قبرص، ورودس، وكريت، وصقلية كأنموذج لتلك العلاقات التجارية مع جزر المتوسط)

بعد استيلاء الفرنجيين على بلاد الشام حصلت العديد من المدن الايطالية على الامتيازات التجارية الأهم، وذلك بسبب مساعدة تلك المدن للفرنجيين في السيطرة على بلاد الشام، وقد أسهمت الحروب الفرنجية عموما في تنشيط الحركة التجارية بين الشرق والغرب، وهذا ما عبر عنه ابن جبير بقوله "ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج من بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين"[١].

ورغم الصراع الدائر بين الفرنجة والأيوبيين، فقد حرصت الدول الأوروبية على إقامة علاقات تجارية وطيدة مع مصر والشام، وقد كانت تلك العلاقات تعكس رغبة الطرفين في إقامة مثل هذه العلاقات التجارية، ومن الثابت أنه عندما كانت تنقطع التبادلات التجارية بين الطرفين نتيجة الحروب أو الظروف السياسية أو العسكرية فإن الأضرار الاقتصادية التي كانت تلحق بمصر والشام لم تكن لتقل عن الخسائر أو الأضرار التي كانت تلحق المدن الايطالية[٢].

وقد حرص التجار الأوروبيون وبالأخص الإيطاليين على تنظيم مواعد الرحلات مع بلاد الشرق، وكان تنظيم تلك الرحلات يتم وفق حساب دقيق لحركة الرياح حيث استغل التجار حركة الرياح الشرقية للسفر إلى مصر بلاد الشام وهذا ما أكده ابن جبير بقوله "أن الريح الشرقية لا تهب فيها إلا في فصلي الربيع والخريف، والسفر لا يكون إلا فيهما، والتجار لا ينزلون إلى عكة بالبضائع إلا في هذين الفصلين"[٣] وكانت حركة التجارة تتم من خلال نقل البضائع إلى بلاد الشام، في طريق الذهاب، وفي طريق الإياب تتم حركة اخذ البضائع إلى أوروبا. وهذا المبحث يتناول ذلك في مطلبين:

المطلب الأول: الصادرات الأيوبية إلى جزر البحر المتوسط.

المطلب الثاني: الواردات الأيوبية من جزر البحر المتوسط.

المطلب الأول الصادرات الأيوبية مع جزر البحر المتوسط

ترجع العديد من المصادر التاريخية ازدهار الحركة التجارية بين الأيوبيين والفرنجة عموما إلى عدة عوامل لعل من أبرزها توافر المواد الخام بكثرة في مدن بلاد الشام عموما مع الأخذ بعين الاعتبار أن بعض تلك المدن كان تحت سيطرة الفرنجة والبعض الأخر كان تحت سيطرة الأيوبيين، إضافة إلى الطرق التجارية الرئيسية التي كانت تربط بلاد الشام بباقي العام وبخاصة

---

[١] ابن جبير، الرحلة، ص٢٧١.

[٢] زيتون، عادل، العلاقات الاقتصادية، ص١٨٩.

[٣] ابن جبير، الرحلة، ص٢٥٦.

طريق الطريق الساحلي الممتد من جنوب شبه الجزيرة العربية بطول البحر الأحمر، وكذلك الطرق التي تربط ولايات بلاد الشام ببلاد الأرمن وأملاك الدولة البيزنطية، فلم تكن تلك الطرق تحت سيطرة احد الطرفين بالكامل مما اضطر كل من الفرنجة والأيوبيين إلى إقامة علاقة تجارية[١].

ومن العوامل المهمة التي أسهمت في ازدهار حركة التجارة بين الأيوبيين والفرنجة تمكن الأيوبيين من استعادة "آيلة" العقبة، وكذلك استعادة حصني الكرك والشوبك سنة ٥٨٤هـ/١١٨٠م، حيث أصبحت الطرق مهيئة للقوافل للتنقل بين الشام ومصر وكذلك صلح الرملة الذي عقه الأيوبيون مع الفرنجة سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م، والذي أسهم في زيادة حركة التبادل التجاري بين بلاد الشام والبلدان الأخرى[٢].

وتنشطت حركة العلاقات التجارية مع جزر البحر المتوسط حيث صدر الأيوبيون لتلك الجزر الزجاج، حيث اشتهرت أنطاكية بذلك وقد أكد الرحالة بنيامين التطيلي على ذلك بقوله "فيها عشرة يهود يحترفون صنع الزجاج"[٣]، وكذلك صور حيث اشتهرت "بصناعة الزجاج النفيس المعروف بالزجاج الصوري"[٤].

وكان السكر أيضا من بين أهم الصادرات الأيوبية إلى الغرب الأوروبي وقد انتشرت زراعته على ضفاف نهر الأردن، وكانت صيدا تعتبر من المدن الهامة في زراعته وكذلك طرابلس، وكانت صور مركزا رئيسا لتصنيع السكر، وتم تصدير زيت الزيتون إلى أوروبا حيث واشتهر الساحل الشامي والخليل والقدس ونابلس زيت الزيتون، وكان معدن الشب والذي انتشر بكثرة على شواطئ البحر الميت من بين المواد المصدرة إلى الغرب نظرا لأهميته في الصناعات الأوروبية[٥].

---

[١] محمود، علي عيسى، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين، مؤسسة عين للدراسات البحوث، ١٩٩٧م، ص١٤.

[٢] الطواهية، فوزي، النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين ٥٩٦-٦٤٨هـ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٤٢، العدد ٢، ٢٠١٥م، ص٢٩١.

[٣] التطيلي، :الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م، ص٢٣٠.

[٤] المرجع السابق، ص٢٣٨.

[٥] زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص١٧٤.

ونظرا للأهمية الكبيرة لمعدن الشب حيث ذكر صاحب قوانين الدواوين أنه "حجر معروف ويحتاج إليه في أشياء كثيرة، أهمها صبغ الأحمر، وللروم فيه من الرغبة بمقدار ما يجدون من الفائدة، وهو عندهم مما لا بد منه ولا مندوحة عنه"[١] فقد تم احتكاره من قبل الدولة الأيوبية بحيث لا يتم بيع هذا المعدن إلا من المتجر السلطاني ومن اشتراه من غير المتجر تعرض لعقوبة وتم مصادرة ما معه، والى هذا المعنى أشار ابن مماتي بقوله "وليس لأحد أن يشريه أو يبيعه سوى الديوان ومتى وجد شيئا من صنفه مع أحد استهلك تغليظا في عقوبة التعدي عليه"[٢].

وتم تصدير التوابل إلى أوروبا حيث كانت بلاد الشام مستودعا للتوابل القادمة من بلاد الشرق وكانت التوابل من بين السلع التي حرص الأوروبيون على استيرادها من بلاد الشام حيث استخدمت تلك التوابل في طهي الطعام وصنع النبيذ، وكان قسم من تلك التوابل يستخدم في علاج الأمراض[٣].

وقد حرص الفرنجة على استقدام التجار بكثرة إلى بلاد الشام ليس من أجل القتال فقط ولكن لغاية أخرى قد تكون أهم من غاية القتال وتتمثل بنقل المؤون والبضائع إلى أوروبا والتي كانت بحاجة ماسية لتلك المؤون والبضائع[٤].

ومن الملاحظ أن الجزر الأوروبية على البحر المتوسط قد شكلت مركزا لتجمع البضائع والسلع القادمة من مصر وبلاد الشام ومن ثم يتم نقلها إلى أوروبا؛ حيث شكلت جزيرة كريت مركزا لاستيراد السلع والمنتجات من بلاد الشام ومن ثم نقلها إلى البندقية مركز التجارة الأوروبية في ذلك الوقت[٥].

المطلب الثاني الواردات الأيوبية من جزر البحر المتوسط

لم يقتصر التبادل التجاري بين الأيوبيين وجزر البحر المتوسط على تصدير السلع لتلك الجزر، ولكن بالمقابل كانت بلاد الشام تستورد العديد من السلع المنتجة في أوروبا، حيث تدفقت العديد من السلع إلى أسواق بلاد الشام ومن كانت الثروات الطبيعية والمواد الخام مثل النحاس والحديد والصوف والعبيد في مقدمة تلك السلع[٦].

---

[١] ابن مماتي، الأسعد، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت، ص٣٢٨.

[٢] المرجع السابق، ص٣٢٩.

[٣] هاو، سونيا. ي، في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م، ص٢٢.

[٤] هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٨٧.

[٥] الوزني، التجارة في الدولة الأيوبية، ص١٨٨.

[٦] عاشور، سعيد ، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص١٨٧.

واشتهرت جزيرة كريت بصادراتها الى الشام حيث وصفها الإدريسي بقوله "جزيرة إقريطش وهي من أكبر الجزائر البحريَّة في بحر الشامي، وفيه من الجزائر الصغار ثمانية وعشرون جزيرة بين عامرة وغامرة؛ بل أكبرها عامر، وفيها من المدن مدينة الخندق وربض الجبن، وبها معدن ذهب وأشجار وفواكه، ويُعمل بها جيِّد الجبن الذي يتجهَّز به إلى جميع النواحي ولا يعدله شيءٌ من نوعه...، وفي أجبلها الوعول الكثيرة"[١].

واشتهرت جزيرة صقلية باتساع رقعتها وكثرة مدنها وجبالها وقد أشار ياقوت الحموي إلى ذلك بالقول "إن بصقلية ثلاثا وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصنا ومن الضياع ما لا يعرف"[٢] واشتهرت بكثر المصانع فيها وكانت صناعتها تصدر إلى بلاد الشام ومن تلك الصناعات وبخاصة المنسوجات الكتانية الرقيقة والثياب المنقوشة"[٣] أما جزيرة مالطا فاشتهرت بتصدير الماشية وبخاصة الغنم إضافة إلى الزعفران الذي تواجد فيها بكثرة، وكان يحمل منها الفول أخضر ويابس كما تم تصدر معدن الفضة من جزيرة سردانية[٤].

الخلاصة أن التبادل التجاري كان مزدهرا بين الدولة الأيوبية وجزر البحر المتوسط وأوروبا حيث كانت السفن القادمة من أوروبا تحمل منتجات كثيرة في مقدمتها الجبن، وبعض الأصباغ والحديد والنحاس والزيت والمصنوعات الحديدية، وكان للأخشاب أهمية كبيرة نظرا لدخوله في صناعة السفن، ثم تعود تلك السفن محملة بما تحتاج إليه أوروبا من منتجات مصر والشام[٥].

المبحث الثالث العلاقات التجارية الأيوبية مع الدولة البيزنطية

مثل الفرنجة والبيزنطيون قوة مشتركة لمواجهة العالم الإسلامي، فقد اتفق الجانبان البيزنطي والفرنجي على عقد الهدنة بينهما، وهذا ما أورده أبو شامة بقوله "وحكي عن ملك الفرنج خذله الله أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقررت والمهادنة انعقدت والله يرد بأس كل منهما إلى نحره ويذيقه عاقبة غره ومكره"[٦].

وإزاء هذا التحالف بادر نور الدين زنكي إلى التصدي لهذا العدو المشترك، فلما "ووردت أخبار من ناحية، ملك الروم باعتزامه على أنطاكية وقصد المعاقل الإسلامية؛ فبادر نور الدين

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج٤، ص ٦٣٥.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٤١٧.

(٣) الوزني، التجارة في الدولة الأيوبية، ص١٨٨.

(٤) المرجع السابق، ص١٩٤.

(٥) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية، ص٢٤٩.

(٦) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج١، ص١٣٣.

بالتوجه إلى البلاد الشامية لإيناس أهلها من شر الروم والإفرنج، خذلهم الله تعالى، فسار في العسكر صوب حمص وحماة"[١]. على أن الإمبراطورية البيزنطية رأت أنه من الأفضل عقد المعاهدات مع نور الدين حيث ترددت الرسل بين الطرفين سنة ١١٥٩م وكان الباعث على ذلك حرص الإمبراطورية البيزنطية لقتال سلاجقة الروم في آسيا الصغرى[٢].

ولكن في فتره صلاح الدين وبالتحديد قبيل الحملة الفرنجية الثالثة انحاز صلاح الدين إلى الدولة البيزنطية باعتبارها أكبر قوة مسيحية في الشرق من خلال المحافظة على المصالح المشتركة التي يهددها اللاتين في الأراضي المقدسة[٣].

ويتناول هذا المبحث المطالب الآتية:

المطلب الأول: مراحل النشاط التجاري الأيوبي البيزنطي.

المطلب الثاني: السلع المصدرة والمستوردة بين الأيوبيين والبيزنطيين.

المطلب الأول مراحل النشاط التجاري الأيوبي البيزنطي

تحتل الإمبراطورية البيزنطية موقعا استراتيجيا؛ إذ تشكل نقطة التقاء بين أسيا وأوروبا وإفريقيا، كمل تشمل الإمبراطورية البيزنطية على معظم الطرق البرية والبحرية التي تربط الشرق بالغرب، وبالرغم من قيام الحروب الفرنجية واضطراب الطرق التجارية، وما تلا ذلك من سقوط القسطنطينية وتعذر الرحلة إليها فقد حرص الرحالة العرب على زيارة القسطنطينية والتي استوطنتها جاليات من العالم الإسلامي وبخاصة من سوريا[٤].

وقد كانت حياة بيزنطة تعتمد على التجارة نظرا لموقعها الاستراتيجي، وتكمن أهمية هذا الموقع في أن الولايات الايطالية والدانوب أو أسيا الصغرى لا تستطيع التوسع دون الاعتداء على الأراضي البيزنطية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية تتمتع بالمنافذ البحرية مما زاد من أهمية موقعها التجاري، وفي الفترة من القرن السادس وحتى العاشر، ولكن مساعدة المدن الايطالية لبيزنطة في حربها ضد صراعاتها الخارجية أدت إلى سيطرة الإيطاليين على تجارة بيزنطة[٥].

---

(١) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٢) عاشور الحركة الصليبية، ج١، ص٦٧٦.

(٣) الحربي، عائشة، أضواء على العلاقات الدبلوماسية الإسلامية البيزنطية، حوليات آداب عين شمس – المجلد ٤٢، ٢٠١٤م، ص١٦٦.

(٤) العدوي، الإمبراطورية البيزنطية والعالم الإسلامي، ص١٥٨.

(٥) الزوي، آمال سليمان عبد الحميد، النشاط التجاري لجنوة في الإمبراطورية البيزنطية: عصر الإمبراطور ميخائيل نموذجا، الاستواء، جامعة قناة السويس، ٢٠١٦م، العدد ٣، ص١٤٨-١٦٥.

وعند التأمل في علاقات بيزنطة مع الأيوبيين يمكن رصد مرحلتين من خلالهما يمكن معرفة طبيعة العلاقات التجارية بين الطرفين:

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل سيطرة البنادقة على تجارة الأيوبيين والقسطنطينية:

شهدت هذه المرحلة علاقات تجارية حسنة بين الطرفين، فقد كانت موانئ الإسكندرية تزخر بالسفن التجارية البيزنطية[١]. وكان للتجار المسلمون معاملة خاصة حيث وفرت بيزنطة لهم كل وسائل الراحة إلى حد كانوا يمارسون فيه الشعائر الدينية في جامع القسطنطينية الذي اهتم كل من صلاح الدين وابنه العزيز بعمارته وكانت لهم فنادقهم وأسواقهم الخاصة، وفي المقابل ولقد لقى البيزنطيون وتجارهم الرعاية والاهتمام في مصر وحظوا برعاية السلطات المصرية[٢].

واتبع الطرفان الأيوبي والبيزنطي إجراءات جمركية دقيقة وصفها ابن جبير بقوله "فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه. فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، وسئل كل واحد عما لديه من سلع"[٣] وربما تصل الضرائب على الصادرات والواردات الخمس وهو "رسم يؤديه تجار الروم والفرنج على الثغور"[٤].

ويعكس التنظيم الدقيق للأسواق الإسلامية والبيزنطية والإشراف على النشاط التجاري بها وطبيعة القوانين المفروضة على ازدهار التبادل التجاري بين الطرفين، كما أن الضرائب المفروضة على البضائع كانت تخضع بالأساس لحاجات الدولة مع الأخذ بعين الاعتبار مصالح التجار، ففي بعض الأحيان كانت الدولة تفرض الخمس على البضائع البيزنطية، كما كانت إقامة التجار البيزنطيين محددة، فلم تسمح الدولة الإسلامية لهم بالإقامة طويلا، وإذا عادوا في نفس السنة بسلع أخرى فرضت عليهم ضرائب إضافية، ولكن عند احتياج الدولة لسلع معينة من الدولة البيزنطية كانت الدولة تخفض قيمة الضرائب، كما أعفت هذا الصنف من التجار من الضرائب في حال عودتهم مرة أخرى في نفس السنة، وهذا ما ذكره القلقشندي بقوله "وقد تقرر الحال على أن يؤخذ منهم الخمس عن كل ما يصل منهم في كل مرة، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضا"[٥] وأضاف "إن للأمام أن يزيد في المأخوذ وأن ينقص عنه للحاجة إلى الازدياد من جلب البضاعة إلى بلاد المسلمين وأن يرفع عنهم إذا رأى فيه المصلحة"[٦].

---

(١) بنيامين التطيلي، رحلة التطيلي، ص٧٩.

(٢) الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات ورقة.

(٣) ابن جبير، الرحلة، ص١٣.

(٤) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٣٢٦.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٣.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٣.

وكان المألوف أن يقيم التجار في الفنادق عند كلا الطرفين، وكانت إقامتهم تخضع لرقابة الدولة، وكان التاجر يحصل على تصريح خاص من الحكومة، وكان في بيزنطة كثير من التجار وخاصة من سوريا، وجميع المواد الخام احتكاراً للدولة ولم تسمح بيزنطة للتجار الأجانب المسلمين بالإقامة أكثر من ثلاثة أشهر، ولم يختلف الوضع في هذه الناحية عند المسلمين إذ كان للتجار فنادقهم وكان الفندق يتألف من طابقين: الأعلى للإقامة، والأدنى لحفظ البضائع، ونعن التجار بحماية الدولة بضائعهم ولأشخاصهم وأقام التجار البيزنطيين في فنادق طرابلس وحلب واللاذقية ودمشق وفي القاهرة عرف بحر الروم – وفي بغداد دار الروم[١].

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي سيطر فيها البنادقة على التجارة بين الأيوبيين والقسطنطينية:

في هذه الفترة التالية سيطر البنادقة على التجارة بين الأيوبيين والقسطنطينية نتيجة للمعاهدات العديدة التي عقدوها مع الأيوبيين ومكنهم من احتكار التجارة في الدولة الأثيوبية، بشطريها مصر والشام وأجاد كثير من التجار اللاتين اللغتين العربية واليونانية. واستمر احتكار البنادقة للتجارة الشرقية إلى سقوط الدولة اللاتينية في القسطنطينية.

أولا: الاتفاقيات بين المدن الايطالية والأيوبيين:

عُقدت العديد من الاتفاقيات التجارية بين الأيوبيين والبندقية[٢] في فترة اشتداد الصراع الفرنجي الإسلامي، واحتدام التنافس التجاري بين البلدان الأوروبية للسيطرة على تجارة الشرق، وبالرغم من نجاح الأيوبيين في التصدي للأطماع الفرنجية، ومساهمة البندقية في الحملات الفرنجية حيث قام البنادقة بنقل الفرنجة إلى المشرق الإسلامي على سفنهم وأساطيلهم أو في مساعدة الصليبين على احتلال بعض المواقع في الساحل الشامي، إضافة إلى قيام البنادقة بتثبيت الوجود الفرنجي ونقل المؤن إلى الفرنجيين في المواقع التي احتلوها، إلا أن النشاط التجاري لم يتوقف بين الأيوبيين والبنادقة[٣].

وتعكس رسالة صلاح الدين للخليفة العباسي الناصر لدين الله الفاطمي عام ٥٨٧هـ/ ١١٨٢م/ الدور المزدوج الذي قام به البنادقة سواء في علاقتهم مع الفرنجيين أو مع الأيوبيين حيث جاء نص الرسالة على النحو الآتي" ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنويون كل هؤلاء تارة

---

(١) العدوى: الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، ص١٢٨.

(٢) لم تقتصر الاتفاقيات التجارية على البندقية فقط بل كانت المدن الايطالية التجارية مثل جنوا وبيزا وغيرها من المدن تحتفظ بعلاقات تجارية حسنة مع الأيوبيين، فقد منح صلاح الدين الأيوبي تجار المدن الايطالية امتيازات خاصة إذ سمح لهم بالتجارة بين مصر و المدن الايطالية وأصبحت الإسكندرية أهم ميناء تجاري وقد زادت هذه الاتفاقية من مخاوف القوى الصليبية بسبب ازدياد النشاط التجاري بين مصر والمدن التجارية الايطالية" انظر: توفيق، فواز، دور المدن الايطالية في الحروب الصليبية "جنوة وبيزا والبندقية" مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، ٢٠٠٩م، المجلد ١٦، العدد ١٠، ص١٧٠.

(٣) زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطة، ص١٧٩.

يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم، وتارة يكونون سفّار يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهونة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة، على ما يزيد ويكرهون، وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون[١].

إلا أن العلاقات التجارية بين الأيوبيين والبنادقة أصابها الضعف بعد فشل الحملة الفرنجية الثالثة في استرداد بيت المقدس، بسبب الضغوط الكبيرة من الأوربيون وضغط البابوية على البنادقة لقطع العلاقات الاقتصادية مع الأيوبيين، ولعل هذا الضغط الشديد من قبل البابوية على البنادقة في وقف التعامل التجاري مع الأيوبيين يعود أساسا إلى حرص أوروبا على عدم تزويد الأيوبيون بالسلع التي تستخدم في الصناعات العسكرية وخاصة كالأخشاب والحديد والقار، وبالرغم من اتفاقية (٥٦٩هـ/١١٧٢م) نصت على استيراد الأيوبيين للحديد والخشب والقار إلا أن هذه السلع كانت محظورة بسبب الحضر الذي فرضته الكنيسة على تلك السلع ومنع نقلها للأيوبيين[٢].

وفي عام (٦٠٥هـ/١٢٠٨م) عقدت اتفاقية تجارية بين البندقية والملك العادل تضمنت رعاية كل طرف لمصالح الطرف الآخر التجارية، وقد حضر هذه الاتفاقية ما يقرب ثلاثة آلاف تاجر، ويذكر المقريزي في حوادث سنة ٦٠٨هـ أن العادل توجه إلى الإسكندرية "وفيها اجتمع بالإسكندرية ثلاثة آلاف تاجر وملكان من الفرنج، فسار العادل وقبض على التجار، وأخذ أموالهم، وسجن الملكين"[٣].

وعلى صعيد بلاد الشام استمرت العلاقات التجارية مع المدن التجارية الايطالية بعد وفاة صلاح الدين، فقد حرص الحكام الأيوبيون في عقد الاتفاقيات التي تسهم في توطيد العلاقات التجارية بين الطرفين، ففي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م أرسلت البندقية سفيرها "ماريتياني" إلى بلاد الشام حيث عقد اتفاقية تجارية مع صاحب حلب "غياث الدين غازي بن صلاح الدين" وحصلت البندقية بموجب هذا الاتفاق على فندق وحمام وكنسية، وتم تحديد الرسوم المفروضة على تجار البندقية كما تعهد صاحب حلب بتقديم كافة المساعدات في مدينته[٤].

---

[١] القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٨٨.

[٢] عطية، الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب، ص٥٣.

[٣] لا تذكر المصادر التاريخية أسماء هاذين الملكيين، انظر: المقرزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١، ص٢٩٤.

[٤] زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص١٩٢.

ومن المدن الايطالية والتي عقدت العديد من الاتفاقيات التجارية مع الأيوبيين مدينة جنوة فقد وقعت اتفاقية تجارية مع صلاح الدين سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م[١]، وتوالت الاتفاقيات التجارية بين الطرفين فعقدت جنوة اتفاقية ثانية مع صلاح الدين سنة ٥٨١هـ/ ١١٧٦م، كما تم توقيع معاهده ثالثة بين الطرفين في زمن الملك العادل للتأكيد على شروط الاتفاقية السابقة[٢].

ورغم المرسوم الذي أصدره البابا ألكسندر الثالث سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م بمنع التجار الإيطاليين من المتاجرة مع المسلمين إلا أن هذا المرسوم لم يمنع المدن التجارية الايطالية من الاستمرار في التبادل التجاري، فقد عقدت البندقية سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م اتفاقية تجارية جديدة مع الملك العادل[٣].

ثانيا: سيطرة الفرنجة على بيزنطة:

احتدم التنافس التجاري بين المدن الايطالية وخاصة بين جنوة والبندقية من أجل السيطرة على مصر وبلاد الشام بعد الحملة الفرنجية الرابعة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، وكان الباعث على هذا الصراع هو الرغبة في الحصول على الامتيازات التجارية، فقد كان هدف الحملة السيطرة على مصر، وبالرغم من الاتصالات بين الأيوبيين والبنادقة من أجل الحد من تجارتهم في البلاد الإسلامية إلا أن تلك الاتصالات لم تفلح واتخذت العلاقات شكلا خطيرا خصوصا داخل بلاد الشام[٤].

ولعل من بين الأسباب الأساسية التي أدت إلى تحويل الحملة الفرنجية إلى القسطنطينية أن جنوة سارعت إلى عقد اتفاقية تجارية مع الدولة البيزنطية لسد الطرق والممرات التجارية أمام البنادقة بغية الحد من نفوذهم التجاري. إلا أن تغير الحملة الفرنجية الرابعة باتجاه القسطنطينية قد عزز من نفوذ البنادقة والتي حصلت على ربع القسطنطينية مع بعض الجزر الهامة في اليونان ولعل هذه الحملة قد عكست الحقد الفرنجي على بيزنطة والتي لم تقدم المساعدة للفرنجيين لاحتلال بلاد الشام، إضافة إلى أن البنادقة سعوا من خلال هذه الحملة التي تعزيز نفوذهم التجاري خاصة بعد تخريب حي البنادقة في القسطنطينية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م[٥].

وتؤكد العديد من المصادر التاريخية أن البنادقة ودوقهم العجوز انريكو داندوولو هم المسؤولون عن هذا التغير في اتجاه الحملة ويستندون في رأيهم هذا على المعاهدة التي أبرمت بين البنادقة والملك العادل، فوفقا للمؤرخ الألماني هويف فإن البنادقة غرروا بالفرنجيين واتفقوا معهم على نقلهم- أي الفرنجة- إلى مصر وكان الفرنجة على استعداد للذهاب إلى مصر، إلا أن البنادقة في ذات الوقت ابرموا مع الملك العادل اتفاقية تجارية حيث منحهم الملك العادل امتيازات تجارية

---

(١) صبرة، عفاف، العلاقات بين الشرق والغرب: علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من ١١٠٠- ١٤٠٠م، دار النهضة، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٢٠١٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢١١.

(٣) انظر: عاشور، مصر والشام في عصر الأيوبيون والمماليك، ص١٢١. صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٢١٢.

(٤) صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٨٣.

(٥) المرجع السابق، ص١٨٤.

واسعة تمثلت بإعطائهم حي كامل في الإسكندرية، في حين أكد المؤرخ الفرنسي ماس لاتيري دوافع البنادقة لتحويل الحملة إلى القسطنطينية إلى الاضطهاد الذي عاني منه البنادقية في القسطنطينية ومن أمثلة ذلك ما تعرض له مانويل كومنينوس ومواطنه في السجن بناء على أوامر الإمبراطور البيزنطي رغم المعاهدات بين الطرفين[١].

غير إن بعض المؤرخين من أمثال أدوين بيرز رأى أن سر تغيير الحملة والدور الذي لعبه البنادقة في ذلك يعود إلى التفوق الذي أحرزته جنوة وبيزا على البندقة في القسطنطينية ومن أمثلة ذلك معاهدة ١٢٧٥م والتي وقعتها جنوة مع القسطنطينية حيث نصت المعاهدة على منح جنوة الحق في تصدير الذهب والفضة والقمح من القسطنطينية ولكن بشرط عدم بيع هذه السلع لأي إقليم هو في حالة عداء مع بيزنطية[٢]، وبناء على ذلك سعى البنادقة إلى تعويض نفوذهم الذي خسروه في القسطنطينية بالامتيازات التي حصلوا عليها في مصر وبناء على ذلك فإن تغيير مسار الحملة حقق للبندقية هدفين، الأول ضرب مصالح جنوة وبيزا في القسطنطينية، والثاني تعزيز نفوذها في القسطنطينية دون أن تخسر امتيازاتها في مصر[٣].

وقد نتج عن سيطرة البنادقة على التجارة في بيزنطة أن تحكم البنادقة بالتجارة بين الأيوبيين وبيزنطة، وكان للمعاهدات التي عقدها البنادقة مع الطرفين الأيوبيين والبيزنطيين دوراً في تعزيز سيطرة البندقية على التجارة واستمر احتكار البنادقة للتجارة الشرقية حيث اتخذت شكلا جديدا من الصراع مع باقي المدن الايطالية وصات حد الحرب كما حدث بين البندقية وجنوة في معارك سنة ٦١٨هـ/١٢٢٠م والتي نشبت في عكا بين البندقية وجنوة ورغم توقيع اتفاقية بين الطرفين إلا أن الحروب تكررت وانضمت بيزا إلى جنوة في حربها ضد البندقية[٤].

ورغم أن القسطنطينية كانت أهم مركز تجاري في العالم حتى سقوطها إلا أنها لم تستفد من ذلك الموقع بل استفاد منه البنادقة الذين أصبحوا السادة الحقيقيين للعاصمة، إلا أن التجارة البيزنطية شهدت انهيارا في مركزها العالمي، ولعل من بين أسباب هذا الانهيار تدخل الحكومة المستمر في شؤون التجارة وفساد الإدارة الحاكمة[٥].

وكان لاحتلال السلاجقة لأسيا الصغرى دورا في انهيار تجارة بيزنطة، حيث أصبحت التجارة تقل بواسطة السفن الراسية في موانئ بلاد الشام الخاضعة لسيطرة الفرنجة وتنقل بواسطة السفن الايطالية إلى أوروبا مما جعل بيزنطة تخسر الرسوم الجمركية على تلك البضائع وسيطرة التجار الإيطاليين على تجارة بيزنطة[٦].

---

(١) غنيم، اسمت، الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٥

(٢) زيتون العلاقات الاقتصادية، ص٩٢.

(٣) غنيم، اسمت، الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، ص١٥.

(٤) صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٨٢.

(٥) رانسيمان ، الحضارة البيزنطية، ص٢٠١.

(٦) عطا، زبيدة، الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٦٨م، ص٢٣٧.

المطلب الثاني السلع المصدرة والمستوردة بين الأيوبيين والبيزنطيين

احتفظ سلاطين الأيوبيين ابتداء من صلاح الدين بعلاقات حسنة مع بيزنطة ، وقد أسهمت عدة عوامل في هذه تعزيز هذه الروابط تمثلت بالآتي[١]:

١- شكل البيزنطيون أكبر عدو للفرنجيين خاصة في عهد اندوفيكوس وإسحاق انجيليوس أخر أباطرة بيزنطة، حيث كان الفرنجة العدو الأساسي للأيوبيين.
٢- كان للعلاقات الشخصية التي بين سلاطين الأيوبيين والبيزنطيين دورا كبيرا في تعزيز هذا التقارب، فحين فر الكسويوس انجيلوس في بلاط صلاح الدين.
٣- تعرض الطرفين في عام ١١٨٥م لتهديد الفرنجة فقد واجه صلاح الدين الإمارات الفرنجية، وفي نفس الوقت أعلنت قبرص العصيان تحت زعامة إسحاق كومنينوس وهو من المؤيدين للدعوة اللاتينية. إضافة إلى الخطر الذي مثله السلاجقة سنة ١١٧٦م للبيزنطيين والدولة الأيوبية.
٤- رغم العداء القديم بين البيزنطيين والدولة الأيوبية، لا أن كلا الطرفان وجد في الآخر حليفا سانده في وجه الأخطار المشتركة.

كانت تجارة بيزنطة مزدهرة مع الأيوبيين لفترة طويلة وصلت إلى حد احتكار الصناعات التي تقوم على الواردات الشرقية مثل صناعة الحرير والمجوهرات والنقش على العاج والأحجار الكريمة وزاد دخل الطرفين من المكوس التي كانت تجبى على التجارة سواء في بيزنطة أو الدولة الأيوبية[٢].

صدرت بيزنطة الى بلاد الشام الذهب والفضة والأحجار الكريمة والمجوهرات والحرير الطبيعي والديباج الرومي والكتان[٣].

استوردت بيزنطة من العالم الإسلامي التوابل والعطور التي كان يأتي بها التجار من الهند فيشتريها تجار بيزنطة وغيرهم من التجار، فضلاً عن سلع أخرى درج البيزنطيون على طلبها، وكان سلاطين الأيوبيين يحرصون على تلك المادة لأهميتها في صناعة الأدوية[٤]، كما استوردت بيزنطة من بلاد الشام الورق والزجاج والصابون والفستق والفراء غالي الثمن كما استوردت بلاد الشام من أرمينيا السمك والملح والزرنيخ[٥].

---

[١] عطا، زبيدة، الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، ص١١٣.

[٢] صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٨٢.

[٣] أبو دمعة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام، ص٢٥٩.

[٤] بنيامين: رحلة بنيامين ص٧٩.

[٥] بني عبدالرحمن، حمد، الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في فلسطين في العصر الأيوبي ٥٧٠- ٦٤٨هـ/ ١١٧٤- ١٢٥٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة اليرموك، ٢٠١٠م، ص١٣٢.

الفصل الثالث
السلع التجارية المتبادلة

- المبحث الأول: صادرات وواردات الدولة الأيوبية من السلع الشامية.
- المبحث الثاني: واردات الدولة الأيوبية من السلع الأوروبية.
- المبحث الثالث: العملات المتبادلة في التجارة.

الفصل الثالث

السلع التجارية المتبادلة

شكلت بلاد الشام في العصر الأيوبي محور النشاط الاقتصادي فكانت بمثابة الوسيط الذي والذي من خلاله يتم تبادل السلع بين الشرق والغرب من جهة، كما أن بلاد الشام اشتهرت بالإنتاج الزراعي والصناعي، فكانت تصدر للعالم ذلك الإنتاج الكبير، وفي المقابل كانت تستورد ما تحتاجه لاستمرار نشاطها التجاري. ومما زاد في تلك الأهمية التجارية أن الطرق التجارية المهمة كانت تمر في بلاد الشام. وتجمعت في أسواق تلك البلاد مختلف الحاصلات، وزاد في الأهمية التجارية لبلاد الشام النظام المالي الذي اتبعه الأيوبيون في التعامل مع العالم الخارجي، وهذا الفصل يلقي الضوء على ذلك من خلال المباحث الآتية:

المبحث الأول: صادرات وواردات الدولة الأيوبية من السلع الشامية.

المبحث الثاني: واردات الدولة الأيوبية من السلع الأوروبية.

المبحث الثالث: العملات المتبادلة في التجارة.

المبحث الأول صادرات وواردات الدولة الأيوبية من السلع الشامية

نشطت التجارة بين بلاد الشام والعالم الخارجي في العصر الأيوبي عموما، ولعل سر الاهتمام بالتجارة الخارجية أنها كانت تشكل مصدرا هاما من مصادر تمويل حركة الجهاد ضد الفرنجة، ولعل ذلك كان هو الباعث على عقد الاتفاقيات التجارية مع العديد من الجمهوريات الإيطالية وبيزنطة وغيرها من المناطق. وهذا المبحث يلقي الضوء على تلك النشاط التجاري مع العالم الخارجي من خلال مطلبين هما:

المطلب الأول: صادرات الدولة الأيوبية إلى أوروبا.

المطلب الثاني: صادرات الدولة الأيوبية إلى الشرق الأقصى.

المطلب الأول صادرات الدولة الأيوبية إلى أوروبا

كان لموقع الشام التجاري دورا كبيرا في ازدهار تجارتها مع العالم الخارجي، فقد شكلت المدن الشامية محطات تجارية بالغة الأهمية ما بين الشرق والغرب، فضلا عن أن المنتجات الشامية كانت ذات أهمية بالغة بالنسبة للغرب الأوربي، و اكتسبت بلاد الشام أهمية أخرى غير الموقع الاستراتيجي والإنتاج فائق الجودة، فقد تدفقت إليها متاجر الشرق الأقصى عن طريق الخليج العربي وآسيا الصغرى ي ومصر[١] وقد استوردت أوروبا من بلاد الشام نوعين من السلع؛ المحلية التي تنتجها بلاد الشام، سلع ومتاجر الشرق الأقصى التي وصلت إلى الموانئ الشامية.

وكان لضخامة الإنتاج الزراعي في بلاد الشام دورا كبيرا في زيادة التبادل التجاري مع أوروبا[٢] وفي عهد صلاح الدين الأيوبي زار الرحالة ابن جبير بلاد الشام وروى ما شاهده عن ضخامة ذلك الإنتاج، فقد وصف معرة النعمان بالقول "وهي سواد كلها بشجر الزيتون والتين والفستق وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقا"[٣] وعن النشاط الزراعي في مدينة حماة ذكر ابن بطوطة ما نصه "بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثره شجيرات الأعناب وفيه المزارع والمحارث[٤] ومن ذلك طرابلس والتي وصفها الإدريسي بقوله "طرابلس الشام مدينة عظيمة عليها سور من حجر منيع ولها رساتيق وأكوار وضياع جليلة وبها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفواكه

---

[١] زيتون ، العلاقات الاقتصادية، ص١٨٨.

[٢] السيد، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين، ص٢٦.

[٣] ابن جبير، الرحلة، ص ١٠٨.

[٤] المرجع السابق، ص٢٣٠.

وضروب الغلات الشيء الكثير والوارد والصادر إليها كثير والبحر يأخذها من ثلاثة أوجه وهي معقل من معاقل الشام مقصود إليها بالأمتعة وضروب الغلات"[١] وكان ميناء طرابلس يجتذب قسما كبيرا من تجارة البحر المتوسط فكان يشحن من موانئها إلى موانئ الغرب في ايطاليا وجنوبي فرنسا منتجات بلاد الشام والشرق[٢].

كان السكر في مقدمة السلع التي تم تصديرها إلى أوروبا، حيث اشتهرت مدن بلاد الشام بالزراعة، فكان الإنتاج الكبير لهذا المنتج مقدمة لتطور صناعة السكر، وقد كان القسم الأكبر من السكر يصدر إلى البندقية وجنوة ومرسليا وبرشلونة[٣]. واستخدم السكر الشامي في أوروبا للعلاج كما استخدم كبديل لعسل النحل الذي كان شائع الاستعمال قبل الحروب الفرنجية[٤].

وصدرت بلاد الشام إلى أوروبا الزيت والمصنوعات النسيجية التي اشتهرت بها بلاد الشام وخاصة إلى أسواق فلورنسا[٥] وكانت فاكهة فلسطين النادرة مثل الليمون الحلو والرمان تتواجد على موائد الأغنياء في إيطاليا[٦] وكانت دمشق مركزا لتلك المنسوجات المركز الرئيس لصناعتها، ونظرا لتميز هذه الصناعة فقد وجد في بلاد الشام سوق للحرير وأخر للقطن، وكانت حلب وحماة مركزا رئيسيا للصناعات القطنية[٧]، كما استوردت أوروبا من طرابلس المنتوجات الحرية ومن مدينة بعلبك الثياب البعلبكية التي كانت ذات شهرة واسعة في الغرب[٨].

ومن بين السلع التي صدرتها بلاد الشام إلى أوروبا السلع القادمة لأسواق الشام من بلاد الشرق الأقصى فقد كانت تلك السلع من السلع الهامة التي اشتد إقبال الأوربيون إليها عليها وخاصة التوابل التي حازت المكانة الأولى بين تلك السلع حتى نهاية العصور الوسطى وكانت تصل إلى بلاد الشام عن طريق الخليج العربي، مرورا بالعراق ثم بلاد الشام [٩]، وقد اعتاد الغربي استعمالها في الأطعمة منذ الحروب الفرنجية، أما لشدة البرودة في أوروبا، أو لتتبيل اللحوم وحفظها، أو لاستعماله كمقار طبي والواقع أن التوابل التي استوردت من وسط آسيا والشرق الأقصى، صارت من الضروريات في الغرب الأوروبي على زمن الحروب الفرنجية، إذ أحدثت تغييرا في عادات النبلاء والأشراف، وساهمت في توفير وسائل الراحة والرفاهية للغرب الأوروبي، ونظرا لتلك

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ج١، ص٣٧٢

(٢) سالم، السيد عبدالعزيز، طرابلس الشام، ص٢٣١.

(٣) البطاينة، الحياة الاقتصادية في فلسطين، ص١٠٤.

(٤) الحويري، الأوضاع الحضارية، ص١٣٣.

(٥) الأحمد، أنس، التاريخ الاقتصادي للدولة الأيوبية، ص١٢٣.

(٦) الحويري، الأوضاع الحضارية، ص١٣٣.

(٧) ابن بطوطة، اتحفت النظار، ج١، ص٦٧

(٨) المرجع السابق، ج١، ص٨٣

(٩) زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص٢٣١.

الأهمية للتوابل أصبحت بلاد الشام المحطة الأولي للسفن الأوروبية، إلى وظلت كذلك حتى تمكن البرتغاليون من خلالها أمداد أنفسهم بالتوابل من متابعها مباشرة[١].

وعلى عصر الحروب الفرنجية، ذاع صيت الشام في صناعة الزجاج والتحف الزجاجية لوفرة المواد الأولية اللازمة لهذه الصناعة، واحتلت صور وحلب ودمشق وأنطاكية، مكانة فائقة، كما صنع الخزف في عدة أماكن من الشام[٢]. وكانت المدن الساحلية في بلاد الشام تشهد نشاطا تجاريا كبيرا حيث كان البضائع الشرقية تتكدس في تلك الموانئ ومنها تصدر إلى أوروبا[٣] كما وصل الزيت الشامي والأنسجة والقماش إلى أوروبا عن طريق صقلية وايطاليا حيث اشتهرت العديد من المدن الشامية وبخاصة بيروت وطرابلس وأنطاكية وطبرية بجودة الصوف والكتان حيث كانت بلاد الشام مركزا رئيسا لصناعتها[٤].

المطلب الثاني صادرات الدولة الأيوبية إلى الشرق الأقصى

تشير العديد من المصادر التاريخية الى ان منتجات وسلع الشرق الأقصى قد تكدس في بلاد مدن الشام بكميات كبيرة جدا، وكان ذلك نتيجة لعدة عوامل من أبرزها سهولة الموصلات بين بلاد الشام وبلاد الشرق الأقصى والغرب[٥]. شيوع الأمان حيث حرص الأيوبيون على تأمين الطرق التجارية الرئيسية التي كانت تحت سيطرتهم، إضافة إلى أن المعاهدات التي كانت تُعقد بين الأيوبيين والفرنجيين كانت تحقق نوعا من الطمأنينة للتجار ففي صلح ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م اشترط صلاح الدين أن "القفول لا تنقطع، والتجارة لا تتعوق من الشام إلى مصر"[٦].

---

(١) الحويري، الأوضاع الحضارية، ص١٣٣.

(٢) زكي محمد حسن: لفنون الإسلامية، ص٦٠٧.

(٣) الوزني، التجارة في الدولة الأيوبية، ص١١٩.

(٤) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية، ص٢٤٨.

(٥) الطبري، تاريخ، ج٧، ص ٦١٥.

(٦) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٣٥٥.

وازدهرت تجارة بلاد الشام مع بلاد الشرق الأقصى، فمن الهند كان تأتي السلع والمنتجات الهندية عن طريق الخليج العربي ثم عن طريق البر تصل إلى بلاد الشام، وكان من أشهر تلك المنتجات الأحجار الكريمة والياقوت والفلفل والتوابل والعنبر[١] ومن جزيرة طوران استوردت بلاد الشام العود والصندل الأبيض، والأبنوس[٢]، والكافور[٣]، وصدرت الهند الياقوت وخشب الصندل والعود وجوز الهند والقرنفل والقرفة والعاج والعقاقير، أما الأحجار الكريمة[٤] فكانت تأتي من جزيرة سرنديب[٥].

ومن الصين استوردت بلاد الشام الورق الصيني، والحرير والديباج والسروج واللبود[٦] والغضائر الفاخرة، والكاغد[٧]، كما استوردت بلاد الشام من الصين والمسك وكانت أفضل أنواع المسلك التي تأتي من التبت وتميز بشدة نفاذ الرائحة إلى درجة أن التجار كانوا لا يستطيعون إخفائه عن العشارين فإذا خرج المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر[٨]. وذكر اليعقوبي أن جودة مسك التبت تعود إلى عشبة اسمها (الكدهمس) وهذه العشبة تنبت في التبت، وأضاف اليعقوبي أن أفضل أنواع المسك التبتي ثم المسك السغدي ويليه المسك الصيني وأفضله ما يأتي من مدينة خانقوا وهي مرفأ الصين التي كانت ترسي بها مراكب التجار المسلمين[٩]. واستوردت بلاد الشام

---

(١) الوزني، التجارة في الدولة الأيوبية، ص٢٠٥.

(٢) الأبنوس: شجر كالجوز يتخذ منه السهام: انظر ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص١٩٨.

(٣) الضلاعين، مروان، والضلاعين، جواد والبري، هايل، السلع التجارية في أسواق بلاد الشام في العصر العباسي الأول، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، المجلد ٣٩، العدد ١، ٢٠١٢م، ص١٨.

(٤) جزيرة في الهند تقع على البحر المسمى هركند، وهي جزيرة كبيره مشهورة ومساحتها ثمانون فرسخا في ثمانين فرسخ ويقال إن آدم عليه السلام نزل في هذه الجزيرة وفيها جبل طوله سبعون ذراعا: انظر ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص٦٤.

(٥) القوصي، عطية، تجارة مصر في البحر الأحمر، منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٩٥.

(٦) الصوف الملبد: انظر ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص١٩٨.

(٧) الغضائر: كلمة فارسية جمعها غضائر وهي القصعة الكبيرة، انظر: البستاني، بطرس، محيط المحيط، مكتبة لبنان، مادة غضر، ص٦٦٠. أما الكاغد فهو فارسي معرب ومعناه القراطيس: انظر ابن منظور لسان العرب،ج٢، ص٢٤٨.

(٨) اليعقوبي، معجنم البلدان، ص٢٠٩.

(٩) المرجع السابق، نفس الصفحة.

من الصين المداد (الحبر) والتوابل والفضة والسجاد والحلي والمقابض العاجية والعقاقير، ومن جزيرة سومطرة[١] اللبان ومن جزيرة سوقطرى كان يأتي العود، ومن ساحل ملبار كان يأتي البهار والفلفل.

وكان للمخاطر التي يتعرض لها التجار في المحيطين الهندي والهادي دورا كبيرا في تطوير النظام التجاري، حيث كانت الخسائر تقع نتيجة لتحطم السفن أو غرقها، أو تعرض المتجرمة (قراصنة البحر) لها في البحر، وقد حرص الأيوبيون في زمن صلاح الدين على تعقب القراصنة من خلال الأساطيل البحرية التابعة لهم للمحافظة على استمرار النشاط التجاري[٢].

حيث كان الشريكان يتقاسمان الربح والخسارة ولعل هذا النظام عزز التبادل التجاري بين الطرفين، وحين تقع الخسائر الناتجة عن تحطم السفن كان التجار يبادرون إلى مساعدة ذلك التجار ليعاود نشاطه من التجاري من جديد[٣].

المبحث الثاني واردات الدولة الأيوبية من أوروبا

كانت الحركة التجارية والدول الأوروبية نشطة ولم تتوقف، حتى في أثناء الحروب فقد استمر التبادل التجاري وهو ما وصفه ابن جبير بقوله "ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين"[٤].

كانت أبرز السلع التي صدرتها أوروبا إلى بلاد الشام من الغربي الخشب وكان ذا أهمية فائقة للحاجة إليه في صناعة السفن كما صدرت أوروبا إلى بلاد الشام القصدير والنحاس والرصاص، والصناعات الحديدية والفضية والبلورية[٥].

ورغم أن أوروبا كانت تستورد الأقمشة من بلاد الشام، إلا أنها في المقابل صدرت الجوخ إلى بلاد الشام والقادم من ايطاليا حيث اشتهر الجوخ البندقي واليه أشار القلقشندي بقوله "وإليها ينسب الجوخ البندقي الفائق لكل نوع من الجوخ[٦] وصدر التجار الإيطاليين إلى بلاد الشام الجبن والعسل من كريت وصقلية وبيزنطة، والمرجان من ايطاليا، والزعفران[٧].

---

(١) يطلق على جزيرة سومطرة في المصادر التاريخية عدة أسماء فسماها اليعقوبي جزيرة الرامي، انظر: المسالك والممالك، ص٦٥، أما القزويني فسماها باسم جزيرة رامني، انظر: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، ص٨٠، وسماها المسعودي باسم الرامين، انظر مروج الذهب، ج١، ص١٥٢.

(٢) إسماعيل، صلاح ومصطفى، شوان، محي الدين، عطا، الأوراق المالية ودوافع ازدهارها في عهد السلطان صلاح الدين، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، المجلد١٠، العدد ٣٧، ٢٠١٨م، ص٢٨٥.

(٣) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية، ص٢٥٨.

(٤) ابن جبير، الرحلة، ص٢٣٢.

(٥) أبو دمعة، الحياة الاقتصادية، ص٢٤١.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٥، ص٣٨٥.

(٧) زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص٢٣٤.

كما صدرت أوروبا إلى بلاد الشام أنواعاً الفراء مثل السنجاب والقاقم[١] والسمور[٢] حيث كانت هذه الأصناف تصل من بلاد روسيا ثم يعاد تصديرها إلى بلاد الشام[٣].

ونظرا لضخامة التبادل التجاري بين أوروبا وبلاد الشام من حيث الاستيراد والتصدير، خاصة أن سلع ومتاجر بلاد الشام وجدت اقبالا كبيرا في أسواق أوروبا فقد حرص الطرفان الأيوبي والفرنجي على تشجعيها والمساهمة في إثرائها[٤].

وتم تنظيم التبادل التجاري بين الطرفين، حيث كان يدفع تجار الايطاليون ضريبتين هما؛ الصادر والوارد، وكانت ضريبة الوارد تتم على أساس البضائع التي تباع فعلا، أما تلك التي لا تباع فلا ضريبة عليها[٥]، بشرط أن لا تكون تلك السلعة حديد أو خشب أو قار إذ ينبغي في هذه الحالة بيعها للدولة الأيوبية بسعر السوق، أما ضريبة الصادر فيجري تحصيلها على جميع السلع التي يشتريها الأجانب داخل البلاد[٦].

ولتعزيز هذا التبادل التجاري فقد أسقط صلاح الدين الكثير من الضرائب التي كان يدفعها التجار القادمون إلى الدولة الأيوبية ولعل هذا ما عزز التعاون التجاري بين أوروبا والدولة الأيوبية[٧] وكان للمعاهدات التجارية التي عقدتها الدولة الأيوبية مع التجار الإيطاليين على وجه الخصوص دوراً في تنشيط حركة التبادل التجاري حيث تضمنت الكثير من تلك الاتفاقيات تخفيض الضرائب التجار حيث استفادت البندقية من الاتفاقيات التجارية مع صلاح الدين والذي حصلت بموجبه على حرية مطلقة بالاتجار باللآلئ والأحجار الكريمة[٨].

---

(١) حيوان يشبه السنجاب لونه ابيض، انظر: ابن المقري، الإسعاد بمعرفة الإرشاد، ص٩٠. والسمور حيوان من بلاد الروس وراء بلاد الترك يشبه النمس، ومنه أسود لامع وأشقر.

(٢) والسمور حيوان من بلاد الروس وراء بلاد الترك يشبه النمس، ومنه أسود لامع وأشقر، انظر: ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٣٨٠.

(٣) زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص٢٣٣.

(٤) الحويري، الأوضاع الحضارية، ص١٣٧.

(٥) زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص٢٣٧.

(٦) زكار، سهيل وبيطار، أمنية ، تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٩٨م، ص٢٩٨.

(٧) بني عيسي، عبدالمعز، الموارد والنفقات في الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام ٥٦٩-٦٤٨هـ/ ١١٧٣-١٢٥٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة اليرموك، ٢٠٠٩م، ص٢٤.

(٨) زكار، سهيل وبيطار، أمنية، تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٩٨م، ص٢٩٤.

واستمرت الاتفاقيات بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي حيث وقعت البندقية مع الملك الظاهر غازي صاحب حلب في عهد عنه السلطان العادل، حيث تضمنت الاتفاقية تحديد رسوم دخول التجار البنادقة بنحو (١٢%) ثم جرى تخفيض تلك الرسوم من قبل ابنه العزيز في عهد السلطان الكامل بنسبة (٦%)، كما تضمنت الاتفاقيات كذلك تقديم ضمانات للتجار بسلامة ممتلكاتهم في حال الوفاة أو الغرق[١].

المبحث الثالث العملات المتبادلة في التجارة

تعددت أشكال المعاملات المالية في العصر الأيوبي فلم يكن هناك نظاما مجددا لذلك التبادل ولعل مرد ذلك ضخامة التبادل التجاري وتنوع أشكاله وأماكنه فالتجارة في العصر الأيوبي لم تكن مقصرة على مكان واحد بل كانت ممتدة من الشرق الأقصى إلى أوروبا. وهذا المبحث يتناول ابرز المعاملات المالية ضمن المطالب الآتية:

المطلب الأول: النقود.

المطلب الثاني: الأوراق المالية.

المطلب الأول النقود

تؤكد المصادر التاريخية على أن أول دينار ذهبي تم سكه في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان عام ٧٧هـ[٢] وكان يزن (٤.٢٥غم) وكان هذا الدينار تقليدا للدينار البيزنطي، وكان يتم التعامل به في الأسواق[٣]، واصدر عبدالملك أمرا بالتعامل بالنقود البيزنطية الفارسية، وأحضرت تلك العملات إلى دور الضرب لإعادة سكها من جديد[٤].

وفي العهد العباسي أحدث العباسيون تغيرا على النقوش المضروبة على الدنانير فقاموا بإبدال سورة الإخلاص بعبارة محمد رسول الله في المنتصف وفي الإطار من نفس الوجه عبارة (لا اله إلا الله وحده لا شريك له) أما الوجه الأخر فكتبت عليه عبارة (محمد رسول الله أرسله بالهدى

---

[١] زكار، سهيل وبيطار، أمنية، تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد، ص٢٩٧.

[٢] زكار، سهيل وبيطار، أمنية، تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد، ص٢٩٧.

[٣] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٤، ص٤١٧.

[٤] الكرملي، الأب أنستاس ماري، النقود العربية وعلم النميات، الطبعة العصر، ص٢٥.

ودين الحق ليظهره على الدين كله)[١]. وكانت الدنانير التي تم سكها في عهد الرشيد أكثر رواجا في الأسواق بسبب احتوائها على (٩٨%) من وزنها ذهبا، وكذلك الدراهم التي ضربت في زمن الأمين والمأمون[٢]. وفي زمن الدولة الفاطمية تعددت دور ضرب الدنانير والدراهم في مصر والشام، فوجدت دور الضرب في صور وعسقلان وطبرية ودمشق[٣].

وتؤكد بعض المصادر التاريخية إلى أن الدينار الصوري[٤] استخدم لفترة طويلة من الحكم الأيوبي وحين توفي صلاح الدين "لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية وجراماً واحداً ذهباً صوريا"[٥].

ولكن أشارت بعض المصادر إلى أنه وبعد سقوط الدولة الفاطمية سك صلاح الدين الأيوبي نقوداً باسم سيد، نور الدين زنكي والخليفة المستضيء العباسي وكذلك سك دنانير مصرية عليها اسم الملك الصالح بن نور الدين ثم ضرب صلاح الدين الدينار الذهبي باسمه وباسم الخليفة العباسي بعد إعلان سلطنته في مصر وبلاد الشام، ولما ألمت بالعملة المصرية ضائقة في نهاية القرن السادس الهجري، وعمل صلاح الدين على رفع قيمتها، فأمر في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م بسك درهم تكون نسبة الفضة فيه ٥٠% من وزنه، ونصفها الأخر من النحاس، وإلى ذلك أشار المقرزي بالقول "ثم لما تبدل صلاح الدين بعد موت العادل نور الدين، أمر في شوال سنة ٥٨٦هـ بأن تبطل نقود مصر وضرب الدينار وأبطل الدراهم السوداء[٦] وضرب الدراهم الناصرية وجعلها من فضة خالصة ومن نحاس نصفين بالسوى فاستمر ذلك بمصر والشام"[٧] فأصبح الدينار يساوي تسعة دراهم، واستمر بقاء هذه الدراهم حتى سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م[٨]. وضاق الناس بهذه الدراهم وبنسبتها المالي إلى الدينار الذهب حتى أطلق عليها اسم الزيوف، وأطربت الأسعار سيما أن تلك الدراهم

---

(١) الجبوري، عدي، رؤى النظام النقدي في العصر العباسي١٣٢-٢٤٧هـ/ ٧٤٩-٨١٦م، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجدل ١٧، العدد٧، ٢٠١٠م، ص٤٦.

(٢) القوصي، عطية، تجارة مصر في البحر الأحمر، منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، ص٢٣٣.

(٣) ماجد، عبدالمنعم، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، ص١٢٦.

(٤) نسبة إلى مدينة صور، وتم سك هذا الدينار في العهد الفاطمي، ويختلف عن الدينار الصوري الذي سكه الفرنج من حيث الوزن، فقد كان الدينار الفرنجي يزن ثلثي الدينار الفاطمي، ونسبة الذهب فيه ثلث نسبة الدينار الفاطمي: انظر أبو دمعة، الحياة الاقتصادية، ص٢٢٥.

(٥) انظر تفصيل ذلك في: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٨، ص٢٩٤، الأصفهاني، الفتح القسي في فتح المقدسي، ص٦٢٩، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٤٢٦.

(٦) الدراهم السوداء كان نساوي نسبة الفضة فيها ٣٠%.

(٧) المقرزي، ثلاث رسائل، ص١٥.

(٨) زكار، سهيل، وبيطار، أمينة، تاريخ العصر الأيوبي، ص٢٩٨.

جلبت عملة أكثر رداءة منها من العملات القديمة والناقصة والمعروفة باسم الدراهم السوداء، فلم تبلغ قيمة الدرهم الأسود سوى ثلث الدرهم الشرعي وكان التعامل بها خسارة في البيع والشراء[١].

وانتشرت في عهد الملك الكامل الفلوس النحاسية. وكانت قيمتها متغيرة. ففي سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م كان الدينار يساوي ٤٥ فلساً، ثم وصلت قيمته بعد مدة وجيزة وفي نفس السن إلى٨٠ ثم ٩٠ ثم ١٢٠ فلساً. مما دعا الكامل إلى إصدار مرسوم يحظر فيه التعامل بالعملات النحاسية كذلك جدد خليفته الملك العادل الثاني نفس قرارا الحظر سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩[٢].

ويبدو أن الفلوس لم تكن بالشيء المهم في التعامل التجاري، وإنما كانت وسيلة من وسائل التعامل التجاري البسيط، فيذكر المقرزي أن المعتبر بالتجارة منذ القديم إنما هو الذهب والفضة، فقال "أن التي تكون أثمانا للمبيعات وقيم الأعمال إنما هي الذهب والفضة فقط، ولا يعلم في خبر صحيح ولا سقيم عن أمة من الأمم ولا طائفة من طوائف البشر إنهم اتخذوا أبدا في قديم الزمان وحديثه نقدا غيرهما، إلا انه لما كانت في المبيعات محقرات تقل عن أن تباع بدرهم أو بجزء منه احتاج الناس من أجل هذا في القديم والحديث من الزمان إلى شيء سوى الذهب والفضة يكون بإزاء تلك المحقرات ولم يسمى ذلك الشيء الذي جعل للمحقرات نقدا البتة"[٣].

المطلب الثاني الأوراق المالية

اتسع النشاط التجاري في العصر الأيوبي بشكل كبير وامتد نشاطه من الغرب إلى أقصى الشرق، واحتاج التجار إلى وسائل مالية غير النقود، فازدهرت الأوراق المالية ذلك لأسباب عديدة من أبرزها المخاطر التي تواجه التجار عند حملة مبالغ مالية كبيرة خاصة من قراصنة البحر وقطاع الطرق[٤].

واستخدم الأوراق النقدية كان شائعا قبل العصر الأيوبي، ففي العصر العباسي طلب الفضل بن يحي من الرشيد ان يعطي محمد بن إبراهيم الإمام مليون درهم فلما وافق على طلبه سأله الفضل أن يصك بهذا المبلغ صكا بخطة[٥].

---

(١) عوض الله، أمين، أسواق القاهرة من العصر الفاطمي حتى نهاية العصر المملوكي، ص٦٩.

(٢) عوض الله، أمين، أسواق القاهرة من العصر الفاطمي حتى نهاية العصر المملوكي، ص٧٠.

(٣) المقرزي، ثلاث رسائل ، ص١٨.

(٤) إسماعيل، صلاح ومصطفى، شوان، محي الدين، عطا، الأوراق المالية ودوافع ازدهارها في عهد السلطان صلاح الدين، ص٢٨٣.

(٥) عوض الله، أسواق القاهرة، ص٧٧.

والصك كلمة فارسية معربة والمقصود بها الكتاب، فارسي معرب، وجمعه أصك وصكوك وصكاك؛ قال أبو منصور: والصك الذي يكتب للعهدة معرب، أصله جك ويجمع صكاكا وصكوكا، وكانت الأرزاق تسمى صكاكا؛ لأنها كانت تخرج مكتوبة"[١] فهو عبارة عن ورقة مالية تتضمن إقرارا بدفع المال لحامله[٢].

وكان الصك بمثابة ورقة نقدية تفوض صاحبها بالحصول على مبلغ نقدي مطابق لما هو في الصك وكان شائع الاستعمال فقد ابن حوقل انه رأى بادوغست "صكا فيه ذكز حقّ لبعضهم على رجل من تجار بأدوغست باثنين وأربعين الف دينار"[٣] وذكر ناصر خسرو ذلك بقوله "كنت في أسوان كان لي صديق ذكرت اسمه قبلا وهو أبو عبد الله محمد بن فليج فلما ذهبت من هناك إلى عيذاب كتب من إخلاصه لي لوكيله بها كتابا يقول فيه إعط ناصرا ما يريد وهو يعطيك صكا للحساب فلما بقيت بها ثلاثة أشهر وأنفقت ما معي اضطررت أن أعطي هذه الورقة للوكيل فأكرمني وقال إن له والله لدي أشياء كثيرة وإني معطيك ما تريد وأعطني صكا به"[٤].

ولعل استخدام الصكوك كان نتاجا عن تطور الأساليب المصرفية، فلم يعد النقد هو الأساس بل ظهرت أساليب جديدة وكان كبار رجال الدولة يقومون بتلك الحركة المصرفية من أهل فارس والبصرة، واتسع استخدام الصكوك المصرفية[٥].

واستخدام الصكوك في العهد الأيوبي يعود أساسا إلى أن الأيوبيين بنوا نظامهم المالي على أساس ما كان شائعا عند الفاطميين، حيث كانت الصكوك في النظم التجارية السائدة عند أهل الشرق وكانت قابلة للصرف في البلاد العربية واستخدمت كوسيلة بديلة عن النقود[٦].

ومن الوسائل المالية السفتجة وهي نظام مالي عرفة المسلمون عن طريق الفرس في العصر العباسي، وكان تجار الفرس يستخدمون هذا النظام ثم شاع وانتشر في البلاد الإسلامية وكان التعامل به مستمرا زمن الدولة الأيوبية[٧].

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج١٠، ص٤٥٦.

(٢) إسماعيل، صلاح ومصطفى، شوان، محي الدين، عطا، الأوراق المالية ودوافع ازدهارها في عهد السلطان صلاح الدين، ص٢٩١.

(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص٩٩.

(٤) ناصر خسرو، سفر نامه، ص١١٩.

(٥) أرشيبالد رلويس، لقوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ٥٠٠-١١٠٠م، رجمة أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، ص٢٦٣.

(٦) إسماعيل، صلاح ومصطفى، شوان، محي الدين، عطا، الأوراق المالية ودوافع ازدهارها في عهد السلطان صلاح الدين، ص٢٩١.

(٧) القوصي، تجارة مصر، ص٢٤٤.

والسفتجة "نظام مالي أساسه أن يعطي مالا لآخر وللآخر مالا في بلد المعطي فيوفيه إياه، ليستفيد من أمن الطريق"[١] وتتمثل أهمية هذا النظام المالي في أنه مكن التجار من إرسال كميات كبيرة من النقود من جهة، في أي وقت عن طريق السفاتج، وقد لجأ تجار مصر وبلاد الشام إلى هذا الأسلوب من أجل استغلال كميات كبيرة من النقود في التجارة، وكان الغالب أن يتم التسديد بعد البيع ، وبلغ من دقة هذا النظام المالي أن صاحب رأس المال المقرض يحصل على سفتجات من المقترض ويقوم الصيارفة بتحصيل المبالغ لقاء عمولة[٢].

وكان الباعث على ازدهار هذا النظام المالي انه لما اتسعت التجارة وزادت المعاملات المالية أصبح التعامل بالمبالغ الكبيرة يواجه مشاكل وعقبات متعدد خاصة عند نقل المبالغ الكبيرة من بلد لآخر، وتفاديا لتلك المخاطر كان الصرافون يكتبون رقعا بقيمة المبالغ التي يأخذها منهم التجار قابلة للصرف في أي بلد، وكانت مهمة الصرافين في ذلك العهد تشبه مهمة البنوك وتنظيما للأمر فقد كانت الصفقات التجارية الكبرى تتم تحت إشراف الصيارفة[٣].

وشاع كذلك استخدام الرقاع وهي أن يرسل شخص إلى تاجر أرواق فيها اسم السلع التي يريدها وتحمل الأوراق توقعيه فيرسل له التاجر ما يريد ويحتفظ لنفسه بهذه الرقاع وفي أخر الشهر يرسلها إلى صاحبها ليتسلم منه ثمن ما اخذ، ولم يكن التعامل بهذه الرقاع مقتصرا على الأفراد بل كانت الحكومة تتعامل به كذلك[٤].

---

[١] ابن منظور، لسان العرب، ج١، ص٢٠١.

[٢] الزبيدي، تاج العروس، ج١، ص٥٦.

[٣] عوض الله، التجارة في مصر، ص٧٨.

[٤] القوصي، تجارة مصر ، ص٢٤٤.

الخاتمة

تناولت هذه الدراسة الحركة التجارية في بلاد الشام في العصر الأيوبي (٥٦٩-٦٤٨هـ/ ١١٧٣-١٢٥٠م)، وقد خلصت الدراسة إلى الاستنتاجات الآتية:

١- أدى موقع بلاد الشام إلى ازدهار التجارة وهذا بدوره أدى إلى ازدهار الصناعة والتي كانت قائمة على أساس الاستفادة من المحاصل الزراعة المتنوعة واستثمار الفائض منها في الصناعة، إضافة إلى أن التاريخ العميق لبلاد الشام أسهم بشكل كبيرا في تطور الصناعات المختلفة. وفي السياق ذاته فإن الموقع الجغرافي لبلاد الشام وكثرة المدن الشامية الساحلية إضافة إلى صلاتها مع الشرق الأقصى منذ القدم كل ذلك أسهم بشكل كبير في ازدهار التجارة بنوعيها الداخلي والخارجي.

٢- ظهر من خلال الدراسة أن بلاد الشام كانت مزدهرة قبل العصر الأيوبي، وظل هذا النشاط مستمرا في عهد الأيوبيين واستطاعوا خلال فترة حكمهم تطوير أساليب التجارة وعملوا على تنشيطها وأضافوا إليها نظم مالية جديدة كان من شانها المساهمة في تنشيط الحركة التجارية مع الغرب والشرق.

٣- كان للظروف السياسية التي عاشتها بلاد الشام خلال الحكم الفرنجي أثرا واضحا على تجارة بلاد الشام عموما، وغن ظل هذا النشاط مستمرا، ولكن الملاحظ من خلال الدراسة أن الفرنجة سعوا للاستفادة من تطور الزراعة والصناعة في بلاد الشام وعلموا على تسخير عائدات التجارة في المدن التي وقعت تحت سيطرتهم لتمويل الحملات الفرنجية أو لتحقيق الثراء الفاحش.

٤- توصلت الدراسة إلى أن استمرار النشاط التجاري بين الأيوبيين والفرنجيين كان يرجع بالأساس إلى حاجة كلا الطرفين إلى عوائد التجارة، فالأيوبيين كانوا يحتاجون إلى عائدات التجارة لاستمرار الجهاد والقتال ضد الغزو الفرنجي.

٥- كان الهدف من الاتفاقيات التي عقدها صلاح الدين مع بيزنطة وكذلك مع المدن الإيطالية مثل البندقية وجنوة وبيزا، تنشيط الحركة التجارة بما يضمن رافدا ماليا كان الأيوبيين بأمس الحاجة إليه في تلك الفترة لاستمرار الجهاد، وقد سعى الأيوبيين إلى استثمار الخلافات البيزنطية مع الفرنجيين لعقد تحالف تجاري لصالح الأيوبيين، وكذلك كان للتسهيلات التجارية التي عقدها صلاح الدين مع الجمهوريات الايطالية دوراً في تحويل الحملة الفرنجية الرابعة عن بلاد الشام باتجاه بيزنطة.

٦- على الرغم من الأثر الإيجابي الذي تركته المعاهدات والاتفاقيات التجارية مع الأيوبيين، إلا أن تلك الاتفاقيات قد أدت إلى منح الإيطاليين تسهيلات واسعة أدت إلى تحكم تلك الجمهوريات ببعض أوجه النشاط التجاري للدولة الأيوبية.

٧- من بين ابرز التسهيلات التي اتبعها الأيوبيون لضمان استمرار النشاط التجاري هو حماية الطرق التجارية البرية منها أو البحرية، حيث أن الأمن هو عنصر رئيسي لاستمرار النشاط التجاري.

٨- كان التجار يدفعون ضريبتين هما؛ الصادر والوارد، وكانت ضريبة الوارد تتم على أساس البضائع التي تباع فعلا، أما تلك التي لا تباع فلا ضريبة عليها، وكانت ضريبة الصادر يتم تحصيلها على جميع السلع التي يشتريها الأجانب داخل البلاد.

٩- استخدم الأيوبيون أسلوب حماية السلع المهمة، فإذا كانت السلع التي لم تجد لها رواج حديد أو خشب أو قار إذ ينبغي في هذه الحالة بيعها للدولة الأيوبية بسعر السوق.

١٠- تطورت أساليب النظم المالية في العهد الأيوبي، فعلى الرغم من أن النقود كانت هي أساس التعامل التجاري، إلا أنه إلى جانب النقد ظهرت عدة أساليب مثل الحوالات والصكوك والسفاتج والرقاع.

١١- تطورت أساليب الصيرفة في العصر الأيوبي وكان السبب وراء ذلك ازدهار النشاط التجاري واحتياج التجار إلى مبالغ ضخمة من الأموال فكانت الصيارفة من خلال الأساليب الشائعة في ذلك الوقت يقوم بعملية تسهيل حركة الأموال، وكان ذلك يحقق نوعا من الطمأنينة للتجار الذين وجدوا في تلك الأساليب أساليب آمنة تسهل حركة التجارة لهم وتحميهم من المخاطر التي قد يتعرض لها التجار من قبل القراصنة أو قطاع الطرق.

المصادر المراجـع

أولا: المصادر:

ابن الإخوة، محمد بن محمد بن أحمد (ت٧٢٩هـ/١٣٢٩م)، معالم القربة في طلب الحسبة، دار الفنوان، د.ن، ص

ابن الشحنه، أبو الفضل محمد (ت٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٨٤م.

ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥م.

ابن الفداء، إسماعيل بن محمد (ت٧٢٣هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت).

ابن المقفع، ساويرس (ت٩٨٧هـ)، تاريخ مصر (من بدايات القرن الأول الميلادي حتى نهاية القرن العشرين)؛ تحقيق: عبد العزيز جمال الدين، مكتبة مدبولي، القاهرة ٢٠٠٦م.

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي(د.ت).

ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن محمد، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، ١٩٨٥م.

ابن جبير، محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، رحلة ابن جبير، ط ، دار بيروت، ٢٠١٠م.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي الموصلي (ت٣٦٧هـ/١٢١٧م)، صورة الأرض، دار صادر، أفست ليدن، بيروت، ١٩٣٨م.

ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ١٩٦٩م.

ابن سعيد، أبو الحسن على بن موسى (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، الجغرافيا، د.ت ، د.ن.

ابن شداد، عز الدين محمد بن علي (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق: سامي الدهان، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٣م.

ابن عساكر (ت٥٧١هـ/١١٧٦م)، تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، د.ت.

الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله (ت٥٦٠هـ/١١٦٥م)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢م.

الحموي ياقوت (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، معجم البلدان، دار التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م.

الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت٨٧٦هـ/١٤١٧م)، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٦م.

خسرو، أبو معين الدين ناصر (ت٤٨١هـ/١٠٨٨م)، سفر نامه، تحقيق: يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد – بيروت، ١٩٨٣م.

صالح بن يحيى (٨٥٠هـ/١٤٤٦م)، كتاب تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب، تحقيق لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٢٧م.

القلقشندي، أبو العباس أحمد القلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى، صبح الأعشى في كتابة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٢٢م.

كرد، محمد على (ت١٣٧٢هـ/١٩٥٣م)، خطط الشام، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م.

المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ثانيا: المراجع:

ابن مماتي، الأسعد (ت٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ت.

أرشيبالد رلويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م)، ترجمة: أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية.

ارنست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٧م.

التطيلي: الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي، رحلة بنيامين التطيلي، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢م.

الجوهري، نهى، إمارة طرابلس الصليبية في القرن السابع الهجري، دار العالم العرب للطباعة والنشر، القاهرة.

حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، ٢٠١٠م.

الحسني، علي، تاريخ سوريا الاقتصادي، مطبعة بدائع الفنون، د.ت.

الحوير، محمود، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد "عصر الحروب الصليبية" دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٦٩م.

ربيع، حسنين محمد، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٦٤م.

زكار، سهيل وبيطار، أمنية، تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٩٨م.

زيتون، عادل، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٨٠م.

الزين، أحمد عارف: تاريخ صيدا، د. ن.، ١٩٩٣م.

زيود، محمد أحمد ، حالة بلاد الشام الاقتصادية، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.

سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.

سوفاجية، جان: دمشق الشام، لمحة تاريخية منذ العصور القديمة في العصر الحديث، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٣٦م.

الشامي، أحمد، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م.

صبرة، عفاف، العلاقات بين الشرق والغرب: علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م، دار النهضة، القاهرة، ١٩٨٣م.

عاشور، سعيد عبدالفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.

عاشور، سعيد، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ ، دار المعارف، ١٩٦٧م.

عطا، زبيدة، الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الدولة الأيوبية، ط٢، القاهرة: دار الأمين، ١٩٩٤م.

غنيم، اسمت، الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢م.

غوانمة، يوسف درويش، إمارة الكرك الأيوبية (١٠٩٩-١١٨٧م)، ط٢، عمان: دار الفكر، ١٩٨٢م.

غوانمة، يوسف، تاريخ شرقي التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ط٢، ١٩٨٢م.

فهمي، نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.

القاسمي، محمد سعيد، قاموس الصناعات الشامية المسمى بدائع الغرف في الصناعة والحرف، تحقيق: ظافر القاسمي، د.ن: دم شدت.

القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، د.ت.

الكرملي، الأب أنستاس ماري، النقود العربية وعلم النميات، الطبعة العصر.

مرريس ديموجين، النظم الإسلامية بحث في مؤسسات الدولة: الدين - المجتمع. ترجمة صالح الشماع وفيصل العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٥٢م.

النقر، محمد الحافظ، التجارة الداخلية والخارجية للعالم الإسلامي في العصر الوسيط، دار المسار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م.

نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك، بيروت، ١٩٦٦م.

هاو، سونيا. ي، في طلب التوابل، ترجمة: محمد عزيز رفعت، مكتبة نهضة مصر، ١٩٥٧م.

هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

يحيى، صالح، تاريخ بيروت وأخبار الأمراء البحتريين من بني الغرب ، تحقيق لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية – بيروت، الطبعة الثانية ١٩٢٧م.

ثالثاً: الأبحاث:

إسماعيل، صلاح ومصطفى، شوان، محي الدين، عطا، الأوراق المالية ودوافع ازدهارها في عهد السلطان صلاح الدين، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، المجلد ١٠، العدد ٣٧، ٢٠١٨م.

برغوث، عبد الودود، تاريخ حماة الاجتماعي والاقتصادي والإداري، مجلة الحوليات الأثرية المجلد١٦، الجزء الأول لسنة ١٩٦٦م.

توفيق، فواز، دور المدن الايطالية في الحروب الصليبية "جنوة وبيزا والبندقية" مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد (١٦) العدد (١٠)، ٢٠٠٩م.

الجبوري، عدي، رؤى النظام النقدي في العصر العباسي (١٣٢-٢٤٧هـ/ ٧٤٩-٨١٦م)، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد (١٧)، العدد(٧)، ٢٠١٠م.

الحربي، عائشة، أضواء على العلاقات الدبلوماسية الإسلامية البيزنطية، حوليات آداب عين شمس، المجلد ٤٢، ٢٠١٤م.

الزوي، آمال سليمان عبد الحميد، النشاط التجاري لجنوة في الإمبراطورية البيزنطية: عصر الإمبراطور ميخائيل نموذجا، الاستواء، جامعة قناة السويس، العدد٣، ٢٠١٦م.

الضلاعين، مروان، والضلاعين، جواد و البري، هايل، السلع التجارية في أسواق بلاد الشام في العصر العباسي الأول، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، الجامعة الأردنية، المجلد٣٩، العدد ١، ٢٠١٢م.

الضمور، حاتم نايل، الأسواق في بلاد الشام في صدر الإسلام، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد ٣، العدد١.

الطواهية، فوزي، النشاط التجاري وحركة الأسعار في مصر زمن الأيوبيين ٥٩٦-٦٤٨هـ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٤٢، العدد ٢، ٢٠١٥م.

عاشور، سعيد، أضواء جديدة على ابن عساكر والمجتمع الدمشقي في عصره، بحث قدم بمناسبة الاحتفال بمؤرخ دمشق الكبير ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمئة سنة على وفاته، ١٣٩٩هـ.

العزام، عيسى، صورة الآخر في التراث العربي الإسلامي (العلاقات مع الإفرنج في رحلة ابن جبير) (٥٧٨-٥٨١هـ/١١٨٢- ١١٨٥م) مجلة القادسية للعلوم الإنسانية، المجلد الثالث عشر، العدد ١، ٢٠٠٠م.

عوض، محمد مؤنس، الحروب الصليبية (السياسة - المياه – العقيدة) عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠١م.

محمود، علي عيسى، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين، مؤسسة عين للدراسات البحوث، ١٩٩٧م.

رابعاً: الرسائل العلمية:

أبو دمعة، أمين، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ١٩٨٨م.

بني عبدالرحمن، حمد، الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في فلسطين في العصر الأيوبي ٥٧٠- ٦٤٨هـ/ ١١٧٤- ١٢٥٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة

بني عيسي، عبدالمعز، الموارد والنفقات في الدولة الأيوبية في مصر وبلاد الشام ٥٦٩-٦٤٨هـ/ ١١٧٣- ١٢٥٠م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة اليرموك، ٢٠٠٩م.

حجازي، فايزة عبد الرحمن، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة اليرموك، ١٩٩٢م.

الشواف، عبد المعين، دمشق بين سقوط الفاطميين وظهور الأيوبيين (٤٦٨-٥٦٨هـ/ ١٠٧٥م-١١٧٣م)، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة دمشق، ٢٠٠٨م.

عطا، زبيدة، الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية زمن الأيوبيين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٦٨م.

القوصي، عطية، تجارة مصر في البحر الأحمر، منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القاهرة، ١٩٧٣م.

خامساً: المؤتمرات العلمية:

غوانمة، يوسف، التجارة وسياسة الاعتدال والتسامح بين المسلمين والفرنج، بحث منشور في أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي، جامعة اليرموك، ج٢، ٢٠٠٠م.

Commercial movement in the Levant in the Ayyubid period

(٥٦٩-٦٤٨ AH / ١١٧٣-١٢٥٠ AD)

Abstract

The Ayyubid era witnessed a large number of political, military and economic events alike, and these events were overlapping and intertwined to the extent that it is difficult for the researcher to separate them from each other.

The dispute between the center of the Abbasid caliphate in Baghdad and the Fatimid caliphate in Egypt intensified and under these differences the Solid Wars took over the Levant. Never the less these events didn't stand in the way of the progress and prosperity witnessed by the Ayyubid era in different spheres of life.

During their rule, the Ayyubid were able to counter the crusader invasion and manage the affairs of Egypt and the Levant.

The study came to shed light on the commercial movement in the Ayyubid Period in the Levant from (٥٦٩ H-٦٤٨ Ah/ ١١٧٣ AD-١٢٥٠ AD).

To this end, the study was divided into three chapters dealing with the chapter (Internal Trade Relations in The Ayyubid State) where the information was highlighted on trade, commercial and industrial institutions in the Levant and commercial goods, in addition to the Ayyubid trade with the Frankish powers present at the time in The Levant.

The second chapter dealt with foreign trade in the Ayyubid state, where this chapter presented the routs of international and sea trade between the far east and Europe trade with the Mediterranean islands, as well as trade with Byzantium.

The third chapter dealt with trade goods exchanged, both in relation to exports of the Ayyubid state and to imports from abroad, as well as in trade.

The study concluded that the business activity between Ayyubid and Crusaders was mainly due to the need for both parties to return trade, in order to ensure the continuation of commercial activity, the Ayyubid were keen to protect the roads of land or sea, as security is a key element for the continuation of commercial activity, and finally the Ayyubid were keen to develop the financial system of the covenant, also money was the basis of trade, beside cash several methods have emerged, such as remittances, sukuk, savoj and rabra.